

# لورد كليفلي

مؤسس الامبراطورية البريطانية في الهند

تأليف

ما كولي

نقله بتصرف الى العربية

عبد المنعم صاوي

في  
دمار  
الاول  
بأية م  
كفان  
هاصك  
في الم  
و  
ولازم  
والتي ك  
كليف  
أهل  
على أر  
لأهله  
من الع  
أسانذ  
المساء  
وكانت  
توافق



## سأه كليف

في القرن الثاني عشر هبطت أسرة كليف مقاطعة شروبير وافتتحت مزرعة قريبة من «ماركيت دريتون». وظلت تعيش على ما تغله من إيراد . . . وفي خلال حكم الملك جورج الأول آلت هذه المزرعة الى مستر ريتشارد كليف الذي لم يكن يتميز عن أي رجل حادي بأية موهبة أو كفاءة، ولكنه أصبح من رجال القانون. وكان وقته موزعاً بين واجباته كقانوني والتزاماته كزراع يشرف على مزرعته. وتزوج في مانشستر من سيدة من أسرة هاسكيل. أنجبت له عدة أبناء كان أكبرهم روبرت كليف مؤسس الامبراطورية البريطانية في الهند، وكان مولده في التاسع والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٧٢٥.

ودرج الطفل من مهدد وبدأت تتجلى فيه تلك الصفات التي صحبتته في صباه وشبابه ولازمته في رجولته وكان أبلغها ظهوراً قوة إرادته وحدة طاقته وشجاعته التي لا حد لها والتي كان يصحبها أحياناً تهوّر واندفاع مما دعا الناس الى اتهامه بالجنون. ولقد حكي عنه ببلي كليف إنه كان مولعاً أشد الولع بالمقاتلة فكان يفضب ويتشاجر لأنفه الأسباب. ولقد كان أهل القرية يذكرون تلك المعاصبات التي كان يكوّنهما في صغره من زملائه في الطفولة ويفرض على أرباب الخوانيت إتاحة ليضمن لهم سلامة واجهات محالهم. وصبت هذه الصفات لأهله كثيراً من المتاعب فأخذوا ينقلونه من مدرسة الى أخرى دون أن يحصل على أي قدر من العلوم بل يزداد شهرة في الاعتداء على الناس باليد واللسان. ومع هذا فقد تنبأ له أحد أساتذته وهو الدكتور ايتون بأنه لو عاش هذا التلميذ حتى صار رجلاً وتهيأت له الظروف المساعدة، فإنه سيكون رجلاً عظيماً. ولكن الاعتقاد العام في روبرت كان. «أنه غبي شرير» وكانت عائلته لا ترجو منه خيراً، فلم يكن غريباً منها حين بلغ الثامنة عشرة من عمره أن توافق على تعيينه كاتباً في خدمة شركة الهند الشرقية. وودعه ذووه على ظهر السفينة

التي حملته الى فرع الشركة في مدراس وكانوا يرجون له الثراء أو الموت .

وكانت شركة الهند الشرقية شركة تجارية محضاً وتشغل بضعة أميال مربعة في بلاد الهند تدفع عنها إيجاراً سنوياً للحكومات الوطنية . وكان لها فصائل من الجند قليلة العدد لا تكاد تكفي للإشراف على ثلاث أو أربع قلاع متتابعة مقامة لحماية مستودعات الشركة . ولم يكن هؤلاء الجنود ومعظمهم من الوطنيين الهنود قد تدربوا على النظم العسكرية الأوروبية وكان سلاحهم السيف والدرع أو القوس والنبش . وكانت مهمة موظف الشركة تنحصر في جرد البضائع أو دفع عرايين لعملاء الشركة من التجار أو الإشراف على شحن السفن . هذا الى مراقبة حركات التجار الذين يجرؤون على مزاحمة الشركة . وكان صغار الموظفين مضطرين الى الاستدانة لضائقة مرتباتهم ، أما كبارهم فكانوا يشتغلون لحسابهم الخاص فأصبحوا على شيء من الثراء . أما أولئك الذين كانوا في الوظائف الرئيسية فقد تيسر لهم جمع ثروات طيبة .

أما فرع الشركة في مدراس حيث عين روبرت كليف ، فكان أهم فروعها حيث قلعة سان جورج التي أنشئت في سنة ١٦٤٠ في مكان قاحل تغير عليه دائماً أمواج المحيط الصاخبة . وكان على مقربة منها ثلاث قرى كل منها في شمال الأخرى وتكوّن في مجموعها مدينة مدراس ، فأولها المدينة البيضاء حيث يقيم ثلثمائة انجليزي وبضعة أوروبيين آخرين و « المدينة السوداء » حيث تجار الأرمن والهنود وثالثتها قرية يقيم بها الوطنيون الفقراء . وكان عددهم آخذاً في الازدياد .

وفي داخل القلعة وما جاورها كان الانجليز من الحقوق ما كان لأي ملك هندي آخر في مملكتهم لم يطمعوا يوماً في الاستقلال بهذه البقعة من الأرض التي كانت تابعة لأقاليم الكرنات الذي كان عليه « نواب » ينوب في حكمه عن « نظام » الدكن الذي كان يستمد سلطانه من المغل العظيم صليل جانكيز خان والمترع على عرش دلهي .

### الى الهند

وكانت رحلة كليف مجهدة له ولا سيما في تلك السن المبكرة . وقد رجت السفينة خلال تلك الرحلة على ميناء ريو دي جانيرو حيث ظلت تسعة أشهر واستطاع المغامر الشاب أن يعلم



الكثير عن البرتغاليين في إقليم البرازيل . وكان طول اقامته فيها سبباً في أن يأتي على ما كان معه من نقود وان يقترض من ربان السفينة . وبلغت السفينة مدراس بعد أكثر من عام . وكان كليف مفلساً ومرتبته ضئيلاً إذ لم يكن يتعدى خمسة جنيهات في الشهر . واضطراً الى الاستدانة . وكان مقامه في سكن لا يصلح لسكن أوروبي في ذلك الجو الحار وكان حين وصوله يحمل خطاب توصية لرجل كان من المحتمل أن يجد فيه عوناً له ، ولكنه لم يجد الرجل إذ كان قد صافر الى انجلترا قبل مقدمه . ومنع كليف حياؤه ثم كبرياؤه من أن يتقدم الى من لا يعرفهم وهكذا قضى في بلاد الهند بضعة أشهر قبل أن يتعرف الى غيره أو الى أسرة واحدة . وأثر المناخ وسوء الإقامة في صحة الفتي ونفسه إذ لم يكن ما يؤديه من عمل يتفق مع نشاطه وجرائته فأحس بحنين الى وطنه واعتقد حنينه اليه فكتب الى صديق له في انجلترا يقول « لم أشعر يوماً منذ غادرت أرض الوطن أنني سعيد وان الحزن والألم ليعترياني حين أفكر في انجلترا وكم أكون سعيداً عند ما تناح لي فرصة زيارتها لا سيما ما لشستر محط آمالي » .

ووجد شيئاً من الراحة حينما كان يسمح له وكيل الشركة بزيارة مكتبته وصار يقضي بين جدرانها أوقات فراغه وأقبل على الاطلاع على ما حوته الكتب التي وصلت الى يده . ولكن لا المناخ السيئ ولا الفقر القاسي ولا الدرس والاطلاع ولا مرارة النفي ، قد هذبت من نفسه المتمردة فكان موقفه من رؤسائه دائماً هو موقفه من أساتذته في المدرسة حتى كاد يفصل من عمله يوماً ما واشتد به اليأس مرتين فأول الانحجار في كليهما ولكن الرصاص لم ينطلق من مسدسه في واحدة منهما ، فانقلب بأصم أماً واعتقد أن الأيام تدخره لعمل عظيم .

### الضابط كليف

وكانت انجلترا في حالة حرب مع فرنسا في أوروبا وكان طبيعياً أن تكون الحال كذلك في بلاد الهند ، فقد هاجم لابوردونيه حاكم موريقيوس الانجليز في مدراس واستولى على قلعة سان جورج وعلى المدينة ورفرت الانلام الفرنسية على اقامة واتفق مع الانجليز

على أن يعتبروا أنفسهم أسرى حرب وتعهد بأن تبقى المدينة في يد الفرنسيين حتى تدفع لهم التعويضات اللازمة فيرجعوا عنها .

ولكن انتصار لاوردونيه أثار غيرة مواطنه دويليه حاكم بندشيرى فأعلن أن لاوردونيه قد تجاوز حدود سلطته في عقد هذه المعاهدة وأن جميع المقترحات التي تم في بلاد الهند تحت الراية الفرنسية إنما تكون خاضعة لحاكم بندشيرى وحده . وبهذه النظرة ضم مدراس اليه وساق كبار موظفي الشركة الى بندشيرى وسيرهم في شوارعها باحتفال كبير شهده خمسون ألفاً من المشاهدين . واستطاع كليف أن يهرب من الأسر ليلاً فأوى الى قلعة سان دافيد وكانت إحدى القلاع التابعة لمدراس ولم تسقط بعد في يد الفرنسيين .

وهكذا تهيأت لكليف الظروف التي تتناسب مع صفاته وميزاته وطلب من أولي الأمر في سان دافيد أن يعينه ضابطاً في القوات البريطانية وأجيب الى طلبه . وكانت منه وقتذاك إحدى وعشرين عاماً . وحدث أن اشتبك في عراك مع أحد جنود الفرقة التي كان بها وكان هذا الجندي مشهوراً بالقوة البدنية الهائلة وكان مصدر فزع الفرقة كلها وانتصر عليه فزاد قدره عند زملائه والتفوا حوله وبدأت الأنظار تتجه اليه لما امتاز به من الشجاعة والعدل والحكمة والاخلاص في طاعة الأوامر، وبدأ نجمه في الصعود في أثناء المعارك المحلية التي كانت تدور بين الانجليز والفرنسيين حتى استرعى بأعماله نظر قائده الميجور لوراس . وعقد الصلح بين إنجلترا وفرنسا فعادت مدراس الى الانجليز وبهذا عاد الضابط الشاب

الى الحياة المدنية ثم تركها الى الزي العسكري ولم يمكث به غير قليل حتى عاد الى وظيفته الكتابية . وبينما كان في تنقلاته هذه بين الحياتين العسكرية والمدنية حدث ما حدد مصيره واتجاهه . ذلك ان الحرب وإن وضعت أوزارها في أوروبا إلا أنها قد شبّت أوارها في الهند بين الشريكتين الانجليزية والفرنسية اللتين كانتا تتنازعا للحصول على أملاك تيمورلنك في الهند . ولقد كانت الامبراطورية التي أسسها المغول في القرن السادس عشر من أوسع وأعظم الامبراطوريات التي نشأت في التاريخ حتى ذلك الحين ، من حيث عدد السكان أو مقدار الثراء أو مظاهر الزف والنعيم . إلا أن سياسة الحكم في تلك الامبراطورية حتى في أوج مجدها كانت سيئة جداً وذلك لأن نظام الحكم المطبق هو الذي كان سائداً فيها وما نشأ عن

حكم التناز وهم أن  
نائل الهندوس .  
مناسكة وإن كانت  
أورو نجريب في  
فقد تولى الح  
بالسم والاقامة في  
والخشيش والنس  
أطرافها ويلتهمون  
من بلاد الهند و  
وراجپوتانا ثم قب  
وعب دائم للهنود  
من مناع ويهرب  
الذين كانوا يفرض  
كان يدفع لهم مايف  
الجبال الغربية .  
وتقامت القب  
وعرضها ، كانت  
العين إسمًا للأمير  
صفة شرعية لحك  
أو تقلهم إلى جهات  
لأفليسي البنغال



حكم التتار وهم أقلية لشعب كبير العدد من أجناس متباينة ومن وجود خلافت قامت بها قبائل الهندوس . ولكن هذه الأحداث لم تؤثر في مظهر الدولة الخارجي فبذت عظمة متاسكة وإن كانت قد هدت من كيانه الداخلي . وظلت على هذا الوضع حتى أواخر حكم أورو نجريب في سنة ١٧٠٧ وبموته إنهارت الدولة كأنها بيت من الورق .

فقد تولى الحكم بعد هذا الامبراطور في خلال أربعين عاماً ، ملوك فنعوا بأن يكون لهم الملك بالاسم والاقامة في قصور تهيأت لهم فيها - اكل وسائل النعيم والترف والجمال والدعة والحجر والحشيش والنساء وأهازيج الأوتار ، وذلك في وقت كان المغبرون فيه ينتقصون الدولة من أطرافها ويلتهمون ثرواتها ، فهبط نادر شاه ملك فارس في ١٧٣٩ سهول الأندوس في الشمال الغربي من بلاد الهند واقتحم أبواب دلهي وحمل منها كنوزها إلى بلاده وأعقبته قبائل الأفغان وراجپوتانا ثم قبائل المهراتا . وكانت أشد القبائل المغيرة وحشية وقسوة وأصبحت مصدر رعب دائم للهنود . فما كان يسمع الفلاح صوت قرع طبولهم حتى يحمل ما يتيسر له حملة من مناع ويهرب إلى الجبال أو الغابات حيث يجد في مجاورة السباع أمناً لا يجده في مجاورة الذين كانوا يفرضون الجزية على الولايات والتجار الأوربيين ، بل إن الامبراطور نفسه كان يدفع لهم ما يفرضونه عليه صاغراً وهو يرى من نوافذ قصره في دلهي ، نيرانهم فوق قمم الجبال الغربية .

\*\*\*

وتقامت القبائل المغيرة أملاك الامبراطور ونشأت فيها دويلات صغيرة في طول البلاد وعرضها ، كانت لا تلبث أن تضعف وأن يسترد السلطان فيها نواب ينصبون أنفسهم حكاماً تابعين إسمياً للامبراطور الضعيف يرسلون له الهدايا الفاخرة دليلاً على تلك التبعية التي تكسبهم صفة شرعية لحكم البلاد التي يحكونها وكانوا فيها اصحاب السلطة الحقيقية لا يمكن عزلهم أو نقلهم إلى جهات أخرى وكان هؤلاء النواب مسدين ، فكمونوا أمراً إسلامية تولت الحكم لأقلية البنغال والكرنات .

دوبليه

ورأى دوبليه وكيل شركة الهند الفرنسية هذه الفوضى الضاربة أطنابها في بلاد الهند، ورأى بناقب فكره المتوقد وقوة ذهنه الجبار، انه يمكنه أن يستفيد من هذه الفوضى الشاذة فيؤسس على أنقاضها امبراطورية فرنسية تضم تحت لوائها المسلمين والهندوس على السواء والهنود الوطنيين وقبائل المغيرين معاً وان يؤلف من تلك الشعوب المتباينة في الجنس واللغة والدين والعادات شعباً واحداً يدين بالولاء لفرنسا . ولم يقنع دوبليه بتحديد الغاية بل رسم الخطة التي توصله الى تحقيق هذه الغاية، وذلك في وقت كان فيه أقدر موظفي الشركة الانجليزية لا يشغلون إلاّ بأعداد القواوير وجرد المخازن والاشراف على الشحن ومراقبة التجار المحليين .

وكان دوبليه يرى أن ما يمكن لأي أمير هندي جمعه من جنود لا يستطيع أن يقف — مهما كان عدد جنوده من الكثرة — في مواجهة قوة صغيرة من الجنود النظاميين والمدربين على النظم الأوربية ، وانه من الميسور تدريب الجنود الوطنيين على النظم الغربية الحديثة فيصبحون قوة عظيمة، وان الطريقة المثلى للمغاصر الأوربي هي مراقبة الحوادث والاستفادة من تطوراتها وان يتخذ من الخلاقات التي تنشأ بين الأمراء سبيلاً للتدخل بينهم واتخاذ بعضهم ستاراً يعمل من ورائه على تحقيق غايته — هذه هي السبل التي رسمها دوبليه وصار فيها الانجليز فيما بعد.

ولقد حدث أن توفي « نظام » الدكن في عام ١٧٤٨ وورث ملكه ابنه ناصر چنج وكانت « الكرنات » أغنى المقاطعات التابعة له يتولى الحكم فيها « نواب » أنوار الدين منذ عام ١٧٤٠ وكان طبيعياً في تلك الفوضى الشاملة أن يظهر أمراء طموحون يطالبون بالعرش، وأن يحدوا العون في أولئك الوصوليين الذين يهبون مع كل ريح طمعاً في المغامرات والاصلاب، فظهر مطالب بعرش الكرنات وكان إسمه شندا صاحب، ومطالب آخر بعرش الدكن وإسمه ميرزا فاجنج الذي كان حفيداً للنظام الراحل . واتحد هذان المطالبان وانضم تحت لوائهما الكثيرون ولم يكتفيا بذلك ، بل طلبا من الفرنسيين — ضد أزهرم في هذه المطالبة . ووجد



الفرنسيون الفرصة سانحة لتحقيق أغراضهم ونيل ما ربههم فأمدوها بقواتهم واطمان المطالبان الى هذا المدد كل الاطمئنان ، لاسيما وقد رأيا الفرنسيين يتعمرون على الانجائيز في ساحل « كروماندل » .

وتقرر أن يبدأ بغزو مقاطعة الكرنات فسارت الحملة وقد زاد في قوتها ما أمدّها به الفرنسيون من قوات بلغت عدد أفرادها أربعمائة جندي فرنسي وألني جندي هندي مدرّب على النظم الأوروبية . وكان طبيعياً أن يلتصق الحلفاء على قوات « نواب » الكرنات وأن يظفروا به ويقتلوه وأن يهرب ابنه محمد علي الذي لجأ الى « تريشنوبولي » وأن تم بهذا سيادة الغزاة على مقاطعة الكرنات . فنصب شندا صاحب نواباً عليها . وكان دوابليه المسام الأول في هذا التنصيب فأصبح صاحب النفوذ الأول فيها والحاكم الحقيقي لتلك المقاطعة .

وبعد بضعة أشهر قضاه الحلفاء في حروب ومفاوضات ومؤامرات برزت فيها كفاءة وبلية وساعده حسن حظه فأصبح صاحب الأمر والنهي في إقليم الدكن كله ، ذلك أن ناصر جُنُج قتله أتباعه وتولى مكانه ميرزا فاجُنُج ، وبهذا انتصرت السياسة الفرنسية في ذلك الجزء من بلاد الهند وأقيمت حفلات التتويج الرائعة في مدينة بوندشيري حيث أطلقت المدافع ودقّت أجراس الكنائس وبعد أن تمّ تتويج ميرزا فاجُنُج « نظاماً » لإقليم الدكن أعلن هذا تعيين شندا صاحب « نواباً » لمقاطعة الكرنات و« دوابليه » حاكماً على ذلك الجزء من بلاد الهند الذي يقع بين راس كومورين ونهر كريستنا والذي يبلغ عدد سكانه ثلاثين مليون نسماً ومنحه من الامتيازات ما فاقت به امتيازات شندا صاحب ، فقد عين رئيساً لسبعة آلاف فارس وجعل صك النقود قاصراً على بوندشيري ، واستولى على جميع خزائن المال والنفائس التي كان أمراء الدكن قد جمعوها طيلة حياتهم . وقد تواترت الأنباء عن قدر ذلك المال الذي انساب الى خزائن دوابليه ومنها ما يحدد قدره بمائتي الف جنيه . وفي الواقع لا يمكن تحديد ما جناه الحاكم الفرنسي من وراء تلك الحملة فضلاً عن انه أصبح الحاكم المطلق على ثلاثين مليون نفس إلى نفوذه الكبير في الاقليم كله فان أمراً ما كان يبت فيه قبل استشارته . ولم يبق ميرزا فاجُنُج في مركزه العظيم سوى أشهر قلائل . ثم تولى مكانه أمير آخر من نفس الأسرة مستنداً الى نفوذ الفرنسيين فوافق على جميع الامتيازات التي منحها لهم صلّفه



وأصبح اسم دوبليه يلقي الرعب في النفوس حتى في نفس الامبراطور في دلهي . وكان الأهالي يعجبون كيف أتبع لذلك المغامر الأوروبي أن يحرز كل هذا التوفيق في مدة لا تزيد على أربعة أعوام . ولم يكتب دوبليه بهذا النصر ، بل استولى عليه الغرور فشاء أن يرضخ في أذهان الهنود والانجليز على السواء ما ظنه بعيداً عن تلك الأذهان من قوة مركزه واتساع سلطانه ، فأمر بإقامة مسألة في نفس المكان الذي سقط على مقربة منه ناصر جنج وعين ميرزا فاجننج وأن يكتب على هذه المسألة أنباء انتصاراته وأن يكتب كل وجه من وجوه المسألة الأربعة بلغة غير التي يكتب بها الوجه الآخر حتى يعلم الشرق كله من هو دوبليه وما هي فرنسا . وحول هذه المسألة أنشئت مدينة دوبليه الفاتح .

وقام الانجليز بمحاولات ضعيفة لوقف تفوق الشركة المنافسة وظلت تعترف بمحمد علي كنواب لمقاطعة الكرنات رغم أن هذا الأمير لم يكن له سوى قرية تريشوبولي ، وحتى هذه القرية أصبحت الآن محاصرة يقف على أسوارها شندا صاحب وأعوانه الفرنسيون . وكان لابد من رفع هذا الحصار ولكن هذا الأمر بدا مستحيلاً ، فقيادة الانجليز في مدراس كانت بدون قائد لأن الميجور لورانس عاد الى انجلترا ولم يكن هناك ضابط واحد يمكن الاعتماد عليه . وكان الهنود يرون أن الفرنسيين هم سادة المستقبل فقد رأوهم يوم استولوا على قلعة سان جورج وشهدوا الاعلام الفرنسية ترفرف عليها ورأوا كبار موظفي الشركة الانجليزية مسوقين في ركاب المنتصرين في شوارع بوندشيرى ، ولمسوا انتصار جيوش دوبليه في كل مكان حلت به ورأوه صاحب الأمر في الأقليم كله بينما لم يروا من الانجليز إلا الضعف . في تلك اللحظة ظهر شاب انجليزي مغموور تجلت فيه الشجاعة والقدرة ، فتغير مجرى الأمور .

### اركوت

كان كليف في تلك الأثناء قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، وبعد أن قضى فترة طويلة في تلك الأثناء بين حياته العسكرية والمدنية ، عين بصفة دائمة في وظيفة تجمع بين الناحيتين وهي وظيفة ضابط تموين فصائل الجند برتبة كابتن . واستطاع هذا الضابط الشاب أن يقنع



ولاية الامر في مدراس بأنه من الواجب أن يبذل مجهود لا تقاذ ترينوبولي ، وإلا فان تلك القرية ستسقط في أيدي الفرنسيين وتقتل محمد علي وتقتل أسرة أنوار الدين وتم بهذا سيطرة الفرنسيين على شبه جزيرة الهند كلها . وأنه لا بد من القيام بغزوة كبيرة . فمثلاً اذا وجهت هذه الغزوة الى اركوت عاصمة الكرنات التي يفضل المقام فيها حكام الكرنات ، فليس من المستبعد في هذه الحالة أن يرفع الحصار عن ترينوبولي . ورأى رؤساء كليف أن فكرته وجيهة تستحق التنفيذ ، لأنهم كانوا يخشون أن يجي يوم تعلن فيه الحرب بين فرنسا وانجلترا في أوروبا وتصل الى الهند فتهم قوات فرنسا الموجودة ببلاد الهند على أملاك الشركة الانجليزية في مدراس وتدمر المدينة نهائياً ، وتبعاً لذلك وافقوا كلية على ما ذهب إليه ، وفوضوه في أمر تنفيذ الفكرة ، وجعلوا تحت إدارته مائتي جندي انجليزي وثلثمائة جندي هندي مدرين تدريباً أوروبياً . ولم يكن بين ضباط هذه الحملة سوى إثنين شهدا الحرب وعرفا ماهي . وصارت الحملة في جو طائف مطير حتى بلغت أبواب اركوت فذعرت الحامية وأخلت القلعة وولت الادبار فاحتلها كليف دون أن يطلق رصاصة واحدة .

وكان كليف يعلم أنه لن يترك آمناً في اركوت وإنه سيهاجم حالاً فأقبل على جمع الأقوات والذخائر وتقوية الاستحكامات استعداداً للحصار ومواجهة الهجوم المتوقع . وكانت الحامية التي هربت عند مقدمه الى ضواحي المدينة قد جاءها مدد أصبحت به عدتها ثلاثة آلاف رجل عسكرت بظاهر المدينة حتى أقبل المساء ، فخرج عليهم كليف فجأة ، وأعمل فيهم القتل ، فمات كثيرون وهرب الباقون . وأخيراً عاد الى قلعته دون أن يخسر رجلاً واحداً من رجاله .

وبلغت أنباء هذه الأحداث الى هنذا صاحب ، حيث كان يحاصر هو وحلفاؤه الفرنسيون مدينة ترينوبولي ، فخر دأربعة آلاف رجل من جنوده وأمرهم بالسير الى اركوت . وهناك انضمت إليهم فلول حامية المدينة التي بقيت من المعركة السابقة كما جاءهم مدد آخر ، إن يكن أقل عدداً ، إلا أنه كان أكثر أهمية من الوجهة الحربية . وكان هذا المدد مكوناً من مائة وخمسين جندياً فرنسياً أرسل إليهم من بوندشيري . وبهذا أصبح عدد القوات المتحالفة عشرة آلاف مقاتل يتولى قيادتهم راجا صاحب ابن هنذا صاحب .



وتقدم بهذه الحملة نحو قلعة أركوت مهيماً على حصارها ، وكان يرى أن هذا الحصار كافٍ للإستيلاء عليها لأنها في رأيه لم تكن لتحتل الحصار الطويل لتهدم جدرانها وجفاف الخنادق المحيطة بها وضيق العميون المخصصة لتصويب المدافع في أعالي الأسوار .  
ودام الحصار خمسين يوماً تناقص خلالها عدد الحامية فأصبح ١٢٠ أوروبياً و ٢٠٠ وطني ، ولم يكن بين هذا العدد من الضباط سوى أربعة . أما القوة فأوشكت على الفناء وكان الذي يتولى قيادة الحامية شاب في الخامسة والعشرين من عمره كان عمله أصلاً كاتباً في أحد مكاتب الشركة .

ولكن هذا الشاب « كليف » أبدى في قيادته الحزم والقدرة واليقظة ما لو أبداه أي قائد عظيم في أوروبا لنال من أجله أعظم الأوسمة وأغزر النياشين . ولكن الانحلال بدأ بعد هذه المدة الطويلة يدب في قوى الحامية إذ بدأت تمس وطأة الجوع القاسي . ولكن رغمًا من قلة عدد الضباط ورغمًا من اختلاف العناصر التي كانت تتألف منها تلك الحامية لم تظهر روح التمرد والعصيان بين الجنود ، وهي الروح التي كان من المحتمل أن تظهر بين أمثالهم في ظروف مشابهة . ذلك لأن حب كليف الذي كان قد تمكن من قلوب جنوده وإعجاب هؤلاء به ، قرب بينهم وأزال الفوارق الدينية والعنصرية وزاد روح التضحية عندهم قوة . ويمكننا أن نعلم قوة هذه الروح بين أولئك الجنود من تقدم الوطنيين إلى كليف وهو في إبان أزمته ، لا يشكوا قلة الجراية المخصصة لهم ، ولكن ليقترحوا عليه أن يخصص الحبوب كلها للاوربيين من زملائهم لأنهم على حد قولهم أكثر حاجة إلى التغذية منهم لأنهم لم يتعودوا الصبر على الجوع كما تعودوه ، ولأنهم غرباء أحق بالراية . وعرض أولئك الفدائيون على قائدهم أن يطعمهم بنشاء الأرض الذي كانوا قد تعودوه غذاء لهم ولم يرو التارخج أروع من هذا المثل في التضحية والوفاء العسكري ، ولا أبلغ منه دلالة على محبة الجنود لقائدهم .

\*\*\*

ولقد حاولت حكومة مدراس أن ترفع الحصار عن أركوت ، ولكن هذه المحاولة فشلت ، وظلت الحامية تقامي متاعب هذا الحصار حتى لاح بريق الأمل من ناحية أخرى . ذلك أن جيشاً قوامه ستة آلاف من جنود ( المهاراتا ) الذين اتخذوا الجندية مهنة وقطع العارق



ومعية للمعيش بقودهم موراري راو كانوا قد استوجروا النجدة محمد علي في ترينوبولي، إلا أنهم أحجموا وقتاً طويلاً عن هذه النجدة .

فقد كانوا يظنون أن قوة فرنسا لا تقاوم ، وأن النصر محالف لشندا صاحب الذي تشد أزره هذه القوة ، فظلوا لا يحركون ساكناً مقيمين على حدود الكرنات . حتى إذا علموا نبأ حصار أركوت وتلك القوة العجيبة التي أبداهها الانجليز في مقاومة هذا الحصار ، أيقظهم ذلك من سباتهم وأعلن موراري راو أنه لم يظن أبداً أن الانجليز يستطيعون الحرب إلى هذا الحد . أمّا وقد رأى منهم ما رأى ، فانه سيساعدهم ما وسعته المساعدة . وعلم راجا صاحب أن المهراتنا في طريقهم اليه ، وانه لا بد من الاقدام على عمل سريع يتفادى به الالتحام مع تلك القوة الخطرة ، فحاول بادئ ذي بدء مفاوضة كليف وعرض عليه رشوة كبيرة لعله يقبل شروط الصلح التي عرضها عليه ، ولكن هذا رفضها بامتنان وصلف ، فاضطر راجا صاحب إلى أن يثور ويعلن أنه اذا لم تقبل شروطه فانه سيقوم بهجوم تام على القلعة وانه سيقنل جميع من فيها بلا استثناء . فردّ عليه كليف في ازدراء وتهكم بهذا الوعيد .

وأخذ كليف يعد عدته لمقاومة الهجوم المنتظر ويقوي من استحکامات القلعة ويرتب مواقف الجنود ويجهز الذخائر ويصلح من أدوات القتال . حتى بدأ الهجوم العظيم — فتقدمت الفيلة التي تغطي رؤوسها صفائح الحديد .

كان قائد المهاجمين مطمئناً إلى أن أسوار القلعة ستتداعى تحت أقدام هذه الفيلة وأن الأمر لن يكلفه أكثر من ذلك . ولكن هذه الفيلة ما اصطلت بنار الانجليز حتى ولت الأدبار وداست بأقدامها في تقهقرها أولئك الذين كانوا يسوقونها . إلا أن بعض جنود راجا صاحب استطاعوا عبور الخندق المحيط بالقلعة ولكن رصاص المدافعين ردهم عنها أكثر من مرتين . ودام القتال ساعة صقظ فيها أربعمئة رجل ولم يفقد المدافعون غير خمسة أو ستة رجال . وقضى كليف ليلة عصبية كان يتوقع خلالها أن يقوم راجا صاحب بهجمات جديدة ، ولكن ما انبثق ضوء الفجر حتى لم يعد المهاجمين أثر ، فلقد فروا تاركين وراءهم سبعة مدافع وكمية كبيرة من الذخائر . وهكذا رفع الحصار عن أركوت .



النصر

ووصلت هذه البشري الى قلعة سان جورج فعم السروور والابتهاج ، وأصبح كليف في أعين مواطنيه وجنوده قائداً موفقاً ، فأرسلت اليه حكومة مدراس مائتي جندي انجليزي وصبعائة جندي هندي لتعزيز قواته . فلما وصلت كليف هذه الامدادات تحول بها من الدفاع الى الهجوم فزحف بقواته على قلعة تيمري واستولى عليها ، وهناك اتصل بجزء من قوات موراري راو فضمها تحت لوائه وصار بهذه الجيوش لمهاجمة راجا صاحب الذي كان على رأس خمسة آلاف رجل بينهم ثلثمائة فرنسي فدارت بين الفريقين معركة حامية نال فيها كليف نصراً حاسماً استولى به على خزانة راجا صاحب ، وانضم اليه على أثره ستمائة هندي من جنود الراجا واستسلمت له كونيغرام دون أن يطلق رصاصة واحدة ، وكذلك انضم اليه حاكم «أرنيه» بعد أن ترك جانب شندنا صاحب وأقر بولاية محمد علي .

ولو كان الأمر بيد كليف وحده لسار به الى نهاية طيبة وسريعة ولكن الحذر والضعف اللذين كانت حكومة مدراس تبذيهما في قراراتها وأوامرها ، كل هذا أطال أجل الصراع دون أن تكون هناك ضرورة لذلك ، فاستطاع راجا صاحب خلال فترة التردد هذه أن يجمع شمله وان يسير على رأس جيش قوي بينه أربعمائة جندي فرنسي الى قلعة سان جورج ، فلما صار في ضواحيها اعتدى على مساكن موظفي الشركة الانجليز وخربها ولكن كليف صارع اليه واستطاع أن يحيط بجنده ويهزمهم هزيمة منكرة قتل فيها فيمن قتل مائة جندي فرنسي وكان هذا خسارة كبرى . تعادل خسارة بضعة آلاف من الوطنيين . وحينئذ اتجه كليف ببصره نحو قلعة سان دافيد .

صار كليف وقد قويت روحه المعنوية كثيراً الى قلعة سان دافيد وصراً وهو في طريقه اليها بمدينة دوبليه الفاتح والنصب التذكاري المقام بها وأمر بتدمير المدينة والنصب تدميراً شاملاً . ولم يصدر في ذلك الأمر عن غيره شخصية ، ولكنه صدر عن رغبة ملحة لازالة العقيدة التي تتركها في نفوس الأهالي لاقامتها . وليبدد ذلك المظهر الرائع الذي كانت تلك الآثار تضعفه على الفرنسيين حتى تسرب الى نفوسهم الاعتقاد بأن فرنسا لا تقهر ، وانها هي الدولة الأوروبية الاولى التي لا يمكن للانجليز مقاومة سياستها .

وقررت  
حامية قلعة تر  
وتقرر أن يت  
نفس كليف  
زفاته القديمة  
تحت قيادة الم  
لقيادته . فلم  
ولم يكن  
قائمة على أسا  
حينذاك في با  
فلم يكن جندي  
ولكي يدحض  
ملقاة على الأ  
فالتفت الى  
لم يكن قائداً  
نفسه تهمة  
الجو المناسب  
طيبة . ولكن  
ذلك بعد أن  
وطنه عن طر  
ولم يكن بينهم  
وانتصر  
بمحاصرون أ  
وأعدم . وفي



وقررت حكومة مدراس أن تمد كليف ، وقد تهيأ له كل هذا النصر ، بفرق قوية لا تقاذ حامية قلعة تريشنبولي . وما تمّ أعداد الحملة حتى كان الميجور لورانس قد وصل من إنجلترا وتقرر أن يتولى القيادة العامة . وكان المتوقع في مثل هذه الظروف أن يتحكم الغرور في نفس كليف بعد كل ما تهيأ له من نصر رائع في العمليات الحربية التي قام بها أو ثور فيه زماته القديمة التي ظهرت فيه طفلاً وصبيّاً من العناد والمكابرة والمشاكسة فيرفض العمل تحت قيادة الميجور لورنس . ولكن المدهش حقّاً والذي يدلّ على علوّ نفس كليف ، أنه خضع لقيادته . فلم يبد أيّ تراخٍ في أداء واجباته بل كان مخلصاً كل الإخلاص مطيعاً نشطاً .

ولم يكن لدى الفرنسيين قائد يستطيع أن يقف أمام الصديقين ، إذ أن شهرة دوبليه كانت قائمة على أساس أنه سياسي داهية صامم بنصيب كبير في تلك المؤامرات والمفاوضات التي تمت حينذاك في بلاد الهند . أما دوبليه المحارب فلم يكن يستطيع أن يقود جيشاً أو يخوض معركة فلم يكن جنديّاً يوماً ما ولم تكن به رغبة ليصبح كذلك حتى لقد آثره أعداؤه بالجن . ولكي يدحض هذا الاتهام حكى عنه أنه في خلال إحدى المعارك سارع إلى قبيلة ملقاة على الأرض عقب إشعالها ولكنّه بلغها متأخراً . فلما انفجرت كسته بطبقة من التراب فالتفت إلى جنوده قائلاً ( ها أنتم ترون يا أبناءى أنها لا تضر ) . ويرى النقاد الحربيون أنه لم يكن قائداً بل كان كل ما يصلح له إنما هو وضع الخطط الحربية . ولقد دفع دوبليه عن نفسه تهمة الجبن بقوله إنه يفضل الابتعاد عن مواطن الضرب ، لأن الهدوء والسكينة تخلفان الجو المناسب له ، والذي يستطيع فيه أن يضع خططاً محكمة تجيء متى نفذت بدقة ، بنتائج طيبة . ولكنه كان دائماً الشكوى من أنه لم يكن لديه ضباط يحسنون تنفيذ خطته بإحكام . ذلك بعد أن تركه «باسي» ولحق ببلاط النظام وبقي في خدمته يرعى مصالحه الشخصية ويخدم وطنه عن طريق السياسة ، وإن من بقي لديه من ضباط إنما كانوا شباناً يجهلون شؤون الحرب ولم يكن بينهم من كان متصفاً بأية مهارة أو حذق .

وانتصر الإنجليز في كل مكان فبعد أن كانوا محاصرين في قلعة تريشنبولي أصبحوا هم المحاصرون أعداءهم ويكرهونهم على الاستسلام . ووقع شندا صاحب أسيراً في أيدي المهراتا وأعدم . ويقال إن هذا الإعدام تمّ بناءً على طلب محمد علي . وبهذا تمّ انهيار سياسة دوبليه



و غضبت عليه ادارة الشركة الفرنسية في باريس فكفت عن مده بالعون والتشجيع . ورغم هذه الصعوبات ، فان دويليه لم يتطرق اليأس الى نفسه ، ولم تثبط همته ، ولا نضبت موارده . فواصل مقاومة الانجليز بالطريقة التي يتقنها ، طريقة الدس والمؤامرات وبذل المال بالرشوة والاسراف في الوعود الخلابه ، حتى نفذت ثروته بل اضطر الى الاستدانة . كل ذلك في سبيل إثارة أعداء جدد على حكومة مدراس . واستطاع أن يجد أعواناً له ولكنه رغم هذا كله قد ذهبت جهوده أدراج الرياح لأن قوة بريطانيا في الهند كانت قد أخذت في النماء على عكس ما حدث لقوة فرنسا التي بدأت تنهار وكان انهيارها سريعاً .

ولم تكن صحة كليف منذ أن نزل أرض الهند طيبة يوماً ما ، ولكنها بلغت من السوء ما حمله على أن يصمم على العودة الى إنجلترا . وسأقت إليه الظروف عملاً وحتمت عليه أن يؤديه قبل رحيله وكان هذا العمل الذي وكل إليه به ، هو حملة مجهدة زادت متاعبه وآلامه . ولكنه قام بها بكل نشاط ومهارة . ذلك أن قلعتي كوفلونج وشنجلبت كانتا في أيدي الفرنسيين ورأي الانجليز أن يقوموا باحتلالها ووضعت الخطة لإتمام هذا الاحتلال . ورأي ولاية الأمور أن خير ضابط يمكن اسناد رئاسة الحملة إليه هو كليف ، وكان قوامها خمسمائة هندي حديثي عهد بالتدريب العسكري ومائتي إنجليزي جدد استطاعت الشركة أن تجمعهم من سكان أحط أحياء مدينة لندن ، وكانوا يتصفون بسوء السلوك وفساد الاخلاق . ولم يكونوا على شيء من الروح المعنوية . ورغم هذه الظروف جميعاً تولى كليف قيادة هذه الحملة وهو مريض وضعيف وسار بالحملة الى كوفلونج الى أن صار تحت أسوارها . وما أن أطلقت منها رصاصة على جنوده وصادفت مقتلاً من أحد هؤلاء الجنود وهوى صريعاً بين زملائه حتى راعهم الأمر وولوا الأدبار . وقاسى كليف الأمرين في سبيل إعادة الطمأنينة الى نفوس الجنود وحملهم على الثبات في القتال ومجابهة الخطر ، وكان يضرب لهم المثل الطيب بوقوفه بينهم وفي الصف الاول من صفوفهم حتى استطاع أن يجعل من تلك القوى المنحلة قوة واحدة متماسكة وقوية ، استطاعت أن تفتح كوفلونج . وعلم كليف إذ ذاك أن حملة قوية قد أرسلت من شنجلبت لا تقاذ كوفلونج . فأعد لها كميناً في الطريق وقع فيه الفرنسيون القادمون ومان منهم مائة رجل وأسر ثلثمائة وفر الباقون ، وأخذ يتمقب كليف هؤلاء الفارين حتى أبواب



فنجلبت وكانت من كبريات المدن المحصنة بالهند وحاصرها حتى استسلم له قائدها .  
وماد كليف الى مدراس منتصراً ولكن حالته الصحية كانت قد ساءت الى حد كبير  
وزاد في ضعف صحته ذلك الاجهاد الكبير الذي عاناه في حملته الاخيرة فكان لا بد له  
لا سيما وقد تزوج ، من أن يعود الى انجلترا بصحبة عروسه التي كانت من عائلة كبيرة وكانت  
هذه العروس فتاة رشيقة ومتملة ومخلصة وهبته كل قلبها .

### العودة الى الوطن

وأبحر كليف عقب الزواج مباشرةً ومعه عروسه ووصل انجلترا فاستقبلته البلاد رغم  
أنه كان في السابعة والعشرين من عمره إستقبال الغزاة الفاتحين ، لأنها كانت ترى فيه  
أحد قوادها المبرزين . ذلك لأن أوروبا كانت في تلك الآونة تتمتع بالسلام فلم تكن هناك حرب  
إلا في أقليم الكرنات في الهند بين الانجليز والفرنسيين ، وكانت أعمال دوليه تثير قلقاً  
كبيراً في لندن وكان لكليف الفضل الأكبر في إزالة هذا القلق بشجاعته وكفائته اللتين  
أبداهما في الانتصار على الحاكم الفرنسي . وأطلقت عليه الشركة لقب الجنرال كليف .  
وبهذا اللقب نودي في جميع الاحتفالات التي أقيمت له . وقدمت له هدايا ثمينة كان بينها  
سيف مرصع بالجواهر ، ولكنه رفض قبوله ما لم يمنح الميجور لورنس مثيلاً له . وكان هذا  
اعترافاً منه بفضل صديقه ورئيسه ووفاء منه له ، ولم يقتصر تكريم كليف على الشركة ، بل  
كان تكريمه عامياً صاحمت فيه الهيئات والافراد .

وكذلك أحسنت أسرة كليف استقباله والترحيب به بعد إذ أبهجها نجاحه وسرها ما نال  
من توفيق وعجبت كيف أصبح روبرت الخامل في صباه ، رجلاً عظيماً في شبابه بل إن والده  
كان لا يؤمل قطعاً في أن يبلغ روبرت أي نجاح أو يصل الى أي نبوغ حتى علم أبناء دفاع  
كليف عن أركوت ، حينئذ قال إن أمه في ولده بدء يبعث من جديد . وما زال تقدير مستر  
ريتشارد لولده يزداد عقب كل نجاح يحرزه ، حتى تمكن من فؤاده حبه وتقديره ، بل وأصبح  
يفخر بذلك الابن .

وأصاب روبرت كليف بعض المال قبل عودته الى أرض الوطن وزاد نصيبه مما منحه  
إياه ادارة الشركة في لندن ولم يكن أنانيّاً ولا جشعاً كما انه لم يكن ابناً طاقاً فسد ديون



أبيه كلها وعمل على اصلاح مركزه المالي اصلاحاً شاملاً وشمل مزرعته بعنايته فتولاهما بالاصلاح والحماية والتجديد حتى عاد لها بهاؤها ورونتها وشبابها وزاد انتاجها وتضاعفت خيراتها . وحتى أمكن الى أن يطمئن الأب أن يعيش مما تغله من خير كثير في أمان . وكما كان باراً بأبيه كان باراً بنفسه فأخذ يصرف عن سعة وعاش مدى عامين في انجلترا عيشة بذخ وترف أتت على ما كان قد بقي لديه .

وحينئذ فكر في العودة الى بلاد الهند وكما كانت الحكومة تفكر في اعادته الى تلك البلاد كذلك كانت الشركة ترى ضرورة ارساله اليها حيث كانت الحال تستدعي وجوده هناك واستغلال مواهبه وكفاءته وخدماته، إذ انه رغمًا من وقوف الحرب بين الانجليز والفرنسيين في مقاطعة الكرنات بعقد معاهدة كانت في صالح الانجليز أعقبها عزل دويليه وعودته الى فرنسا — بعد اذ فقد ثروته التي كان قد قضى زمناً طويلاً في جمعها وفقد أمله في تكوين إمبراطورية فرنسية في الهند — حيث مات حزيناً . فان الدلائل كلها كانت تنذر بوقوع حرب طويلة بين الفرنسيين والبريطانيين وكان لا بد من ارسال قائد ماهر الى ممتلكات الشركة الانجليزية بالهند فتقرر تعيين روبرت كليف حاكماً لقلمة سان دافيد ومنحه الملك رتبة لفتنت كولونيل في الجيش البريطاني . وهكذا اجتمعت في هذا التعمين رغبات ثلاث .

رغبة الحكومة ورغبة الشركة ورغبته الشخصية . فأبحر الى اقليم الكرنات في عام ١٧٥٥ .

### في اقليم البنغال

وكان أول عمل حربي قام به كليف بعد عودته الى الشرق هو الاستيلاء على معقل القرصان ( انجيريا ) في ( غريا ) الحصينة والمقامة على شبه جزيرة صخرية يحيط بها الماء من معظم جهاتها . وتعاون معه في هذا العمل الاميرال وطسن بأسطوله واستطاع بهذا التعاون الاستيلاء على الحصن وعلى جميع ما كان به من مال بلغت قيمته مئة وخمسون ألفاً من الجنيهات تقاصمها الغزاة .

وعاد كليف الى مقر عمله في قلعة سان دافيد ولم يمض على مقامه بها أكثر من شهرين حتى بلغه نبأ أثار حيويته ونشاطه الذهني .

وكان هذا النبأ يتعلق باقليم البنغال الذي كان يمتاز بوفرة حاصلاته وجمال مناظره وخصب



أراضيه ، فضلاً عن وداعة أهله ورفقتهم ، وحبهم الدائم للسلم ، ولباقتهم في الحديث . وكانت الشركات التجارية الأوربية قد أنشأت لها فروعاً بين ظهراني أهل الاقليم . فالفرنسيون استقروا في شندر ناجور ، والهولنديون في شينصورا ، والانجليز في منطقة قريبة من البحر أنشأوا فيها قلعة وليام لتحمي كنيستهم ومخازنهم ومنازل كبار موظفيهم القريبة منها والممتدة على شاطئ نهر الكنج . وعلى كنب منها قامت قرية وطنية كثيرة السكان كبيرة الحركة كان يقيم بها بعض كبار التجار الوطنيين . وكان هذا الجزء من الاقليم الذي اختاره الانجليز لمقامهم أم أجزاء اقليم البنغال لقربه من البحر ولوفرة حاصلاته ما كان منها ينمو على سطح الأرض وما يعيش منها تحت سطح الماء .

وكان اقليم البنغال وأوريسا وبيهار خاضعاً لحكم علي واردي خان الذي كان يتبع امبراطور المغول امما ، ولكنه كان يتمتع في حدود مملكته بكل سلطات النفوذ الواسع وكان منشأ علي وردي خان هذا انه كان خادماً في اقليم بهار واستطاع أن يستغل الظروف الواحد تلو الآخر ، حتى أصبح نواباً لتلك المقاطعة ثم استغل أيضاً فرصة اكتساح نادر شاه لبلاد المغول في عام ١٧٣٩ فقام بثورة على الأسرة التي كانت تحكم اقليم البنغال كله باسم ملك المغول وقتئذٍ في معركة غريا في يناير سنة ١٧٤١ - رأس هذه العائلة وحل محله على العرش . وفي العام التالي استطاع أن يقدم الى الامبراطور كثيراً من الهدايا فوافق جلالاته على تعيينه نائباً له في اقليم البنغال وأوريسا وبيهار ولم يكن علي وردي خان في حاجة الى هذه الموافقة إلا ليكتسب صفة شرعية في حكم البلاد .

ومات في عام ١٧٥٦ وورث عنه مملكته حفيده الشاب سراج الدولة الذي يحكى عنه أنه ولد بغير عاطفة ، فقد كان في طفولته يتلهى بتعذيب الحيوانات الصغيرة لا سيما الطيور وكان كلما تقدمت به السن نحو الشباب ازداد قسوة ووحشية نحو الحيوان بل ونحو اخوانه في الانسانية وأصبح يحلو له أن يشهد الناس يتألمون ويبهجه عذابهم . وكان سكيراً مدمناً أتت الحمر على ما كان قد بقي من عقله الذي ولد به . ولي الحكم في العشرين من عمره وكان مستبداً بطيء الفهم يرضيه ما تبذله له حاشيته من ألفاظ منمقة ، وما تتملقه به من مديح وإطراء .



ولقد كان سراج الدولة يمتك الانجليز منذ طفولته وبكرهم بغير ما سبب ويستحل  
سلب أموالهم ، والآن وقد آل اليه الامر فقد تأس سبباً لاعلان الحرب عليهم ووجد هذا  
السبب في قيامهم بتحصين قلعة ولیم وكان سر هذا التحصين هو ان الانجليز كانوا يتوقعون  
نشوب حرب مع الفرنسيين وساء سراج الدولة أن ياجأ الانجليز الى هذا التحصين دون أن  
يحصلوا على اذن منه بذلك . وثمة سبب آخر تذرع به سراج الدولة لحربه مع الانجليز ، ذلك  
أنهم آووا في كلكتا ثرياً من أثرياء الهند كان قد بلغ من الثراء مبلغاً يستبيح فيه أمير  
الأقليم عادة قتل أمثاله وسلبهم أموالهم وكان هذا الثري قد عين حاكماً على دكا في الوظيفة التي  
خلت بقتل حاكم تلك المدينة والاستيلاء على أمواله . فلما رأى ذلك الثري المصير الذي ينتظره  
تظاهر باعتزام الحج . وجمع أمواله كلها وأرسلها الى ولده في كلكتا ، ثم لحق به الى هناك .  
فلم يقبل الانجليز تسليم اللاجئ الى طالبه . ورأى سراج الدولة في هذين السبعين مبرراً  
كافياً للقيام بحملة ضد الانجليز فسار إليهم على رأس جيش كبير .

وكان الانجليز في إقليم البنغال غير إخوانهم في منطقة مدراس فهؤلاء أصبحوا رجال  
سياسة وحرب بفضل احتكاكهم بدوليه ، أما أولئك فلم يعدوا كونهم رجال تجارة خصب ،  
فان وكيل الشركة نفسه لما علم بمقدم سراج الدولة إليه ، وكان يعلم قبلاً مبلغ قسوته . إنتابته  
الخيرة والارتباك ، فلم يدر ما هو صانع حيال ذلك الخطر الداهم ، وأخيراً إهتدى إلى وجوب  
الاتجاء إلى إحدى السفن الانجليزية الراسية في الميناء . وكذلك هذا حذوه قائد حامية  
قلعة ولیم . وقنع الاثنان بالأمان في مخبئهما ، ولم يقوما بأية محاولة لا نقاذ باقي رفقاءهما  
الذين كان من الممكن جداً إيواءهم في تلك القوارب التي كانت تملأ بحرى النهر ولقد سجل التاريخ  
عليهما هذه المعركة إذ لم يروا شبيهاً لها في تاريخ الامبراطورية البريطانية على وجه خاص .  
وبعد مقاومة هزيلة استولى سراج الدولة على القلعة وأمر من وجدتم فيها من الانجليز ،  
حتى إذا استتب له الامر جلس في قاعة الشركة الكبرى . وأمر فأحضر بين يديه مستر  
هولويل الذي كان أهم رجل بين الأسرى ، وتحدث إليه عن مبلغ إساءة الانجليز إليه  
واعتدائهم عليه . وأبدى له استيائه من قلة ما وجد من المال إلا أنه وعد بإطلاق سراح  
أمناءه من الانجليز . ثم أمر رؤساء جنوده بالمحافظة على هؤلاء الأسرى وآوى إلى مضجعه .



### غرفة الموت

وفي تلك الليلة حدثت الجريمة التاريخية الكبرى التي امتازت بالوحشية والاعمال الانتقامية التي قام بها الانجليز عقب ذلك ، فان الاسرى الانجليز حشروا حشراً في غرفة ضيقة سيئة التهوية لا تزيد مساحتها عن ٢٠ قدماً مربعة . أما الذين سجنوا فيها فقد كان عددهم مائة وستة وأربعين رجلاً . فلم يستطع أحدهم أن ينحني أو يجلس ، وقد كان منهم المسن والضعيف . وكان الجو في تلك الليلة خافقاً خارج الغرفة الجهنمية فابلاك به في داخلها . وذهبت محاولات أولئك الاسرى للافراج عنهم صدت وتوصلاتهم أدراج الرياح ، وأغلق الباب عليهم ، وظلوا فيها طول ليلهم ، فاستبد بهم العطش والتعب ، يطلبون الرحمة فيقابلهم الحراس المطولون عليهم من كوى بأعلا الجدار بضحكات السخرية والاستهزاء وحاولوا بعامل اليأس تحطيم الباب ولكن الباب كان متيناً . وحاول هولويل رشوة الحراس ولكنهم قالوا إن الأمر كله بيد سراج الدولة ، وعظمته نائم لا يمكن إيقاظه بل إنه من الخطورة بمكان أن يحاول أحد إيقاظه . وأخذ الاسرى وقد ذهب برؤسهم اليأس يتزاحون في محبسهم ويدرس بعضهم بعضاً في تدافعهم نحو منافذ الهواء الضيقة ليطلبوا شربة ماء ، فلا يقابلوا إلا بالاستخفاف والامتهان . وأخيراً لجأوا إلى أن يطلبوا من الموكلين بهم إطلاق النار عليهم لإراحتهم من عذابهم الذي كانوا يقاسونه ولكن كان نصيب طلبهم هذا الإهمال . وتقدم الليل وتقدموا هم إلى الفناء فقلت المحاولات ، وضعت القوى ، وخفضت التهديدات وانعدم البكاء ، حتى إذا انبلج الصبح واستيقظ صاحب العظمة وأمر بإطلاق سراح السجناء لم يبق من يطلق سراحه إلا عشرون هيكلاً بشرياً . وأخذ الحراس يزيحون أجسام القتلى يمينا ويساراً ليفسحوا ممراً بين الجثث لتلك الهياكل المتمايلة تخرج منه إلى الهواء متساندة من الضعف والخور مغادرة غرفة الموت . وحفرت حفرة واحدة جمعت فيها بقايا المهالكين وهيل عليهم القرباب .

ولم تأخذ سراج الدولة رحمة بمن ماتوا ، ولا رأفة بمن بقوا ، بل أمر فأوتي بهم إليه وهددهم بشتى أنواع التشكيل إذا هم لم يبوحوا له بسر مكان خزانة الشركة . ثم سيرهم في لغوار المدينة زيادة في التشهير بهم ، ولكن ذلك كله لم يفده شيئاً . وأخيراً نفى عنهم لانه



رأى أن العفو أصلح ، ولكن لأن بعض قريباته توسطت لديه في شأنهم بعد ما سمعته من  
الانجليزية الوحيدة التي قدّر لها أن تعيش بعد ما شاهدته في تلك الليلة الليلية في غرفة الموت  
ثم ضمت الى حريم عظمته .

### نجرة كليف

وأرسل سراج الدولة الى جلالة الامبراطور في دلهي ينبئه بما فعل بالانجليز وغادر كلكتا  
بعد أن غير اسمها الى «ميناء الله» وبعد أن أبقى بقلعة وليم حامية هندية . وفي ١٦ أغسطس  
من ذلك العام وصلت الى مدراس أنباء سقوط كلكتا ، فأثارت حقد الانجليز وأخذوا  
ينادون بوجوب الاخذ بالنار والانتقام . واجتمع الرأي على تجريد حملة إلى إقليم الهوجلي  
تحت قيادة كليف وأن تصحب الحملة قوات بحرية تساهم معها في العمليات الحربية المنتظرة .  
وأن يتولى أمرها الاميرال وطسن ، وفي ١٦ أكتوبر أبحرت الحملة وكان قوامها تسعمائة  
جندي انجليزي من خيرة الجنود ، وألف وخمسمائة جندي من الهنود المدربين تدريباً عسيراً .  
ولم تصل هذه القوات إلى إقليم البنغال إلا في شهر ديسمبر من نفس السنة ذلك ، لأن الرياح  
لم تكن موافية . وحينما نزل الجنود إلى البر في إقليم الهوجلي وبلغت أنباءها مسامع الامير  
وهو في مرشد آباد استهان بأمرهم إذ لم تكن لديه أية فكرة عن الجيوش الأوروبية ونظامها  
ورغم هذه الاستهانة فقد أمر بجمع قواته كلها في مرشد آباد حتى إذا تم له ذلك زحف  
بهذه القوات صوب كلكتا . واستولى كليف على بدجبدج وطرده أتباع سراج الدولة من  
قلعة وليم واستعاد كلكتا وفتح إقليم الهوجلي جميعه ، وراع الامير ما بلغه عن قوة الانجليز  
وما رآه من سرعتهم في الفتح والاستعمار ، فعرض الصلح على الغزاة على أساس أن يستردوا  
ما كان قد أخذه منهم وأن يدفع لهم تعويضاً عما لحق بهم من خسائر .

وداخل كليف الشك في عروض الامير سراج الدولة ولكنه كرجل حرب رأى أن  
قواته محدودة فعمد مجلساً حربياً كان بين أعضائه موظفو الشركة الذين كانوا قد هربوا من  
كلكتا . وكان كل همهم أن يعودوا إلى وظائفهم وأن يظفروا بتعويض عن الخسائر التي  
لحقهم . وفي ذلك الوقت كانت الحرب قد نشبت في أوروبا وخشيت حكومة مدراس احتمال  
قيام الفرنسيين بهجوم عام عليهم ، وأصابهم من أجل هذا الخاطر قلق عظيم وصارت تنتظر



عودة كليف إليها بفارغ الصبر . ورأى روبرت أن عروض الأمير سخية، وأن نتيجة النضال معه غير مأمونة، وأنه من الخير أن يصطاح معه مبدئياً أسفه، لأن الظروف لم تتح له نصراً مؤزراً كما ينبغي ويشتهي .

بدأ كليف حياته عسكرياً من الطراز الأول، ولكنه أضاف إلى هذه الصفة منذ تلك المفاوضات التي دارت بينه والأمير صفة السياسي، بل غلبت هذه الصفة على صفته الأولى، ونال في ميدان السياسة من النجاح ما فاق كل نصر أحرزه بصفاته العسكرية قبلاً . إلا أن هذا الميدان كان شؤماً عليه، وكان العامل الأول في سبيل هدمه .

ويرى ما كولي أن كليف لم يكن رجلاً سيئاً بطبعه، بل كان شجاعاً إلى حد التهور مخلصاً إلى حد الانخداع بالظواهر، مندفعاً في صداقته صريحاً في عداوته . لم يحاول مرة سواء في تلك البلاد النائية عن وطنه، أو بين مواطنيه أن يخذع أحداً من بني جلدته . وقد كان يرى أن السياسة في بلاد الهند تستدعي منه أن يكون على الصفات التي اتصف بها فيما بعد . فكان يعلم أنه سيعامل رجالاً ما يأبهون كثيراً بالمحافظة على الوعود أو العهود، ولا يجمعون في سبيل تحقيق أغراضهم عن الالتجاء إلى الغش والتزوير . ورأى أنه من الخرق في الرأي أن يتمسك بالمثل الأخلاقية العليا في محيط من الناس لا يؤمن بها . ولهذا خلع كليف رداء الجندي، وما كانت تمليه عليه من مبادئ وصفات عادية، واكتفى ثوباً يقتاسب مع عقيدته الجديدة التي زادها تمكناً من نفسه أول تجربة شهدها مع الأمير سراج الدولة .

إذ بينما كانت المفاوضات دائرة بين كليف من جهة وسراج الدولة من جهة أخرى، وكان يمثل كليف فيها وكيلان أحدهما مستر وطسن الموظف بفرع الشركة في إقليم البنغال، وثانيهما أحد البنغاليين واسمه أوميشند، وكان أوميشند هذا تاجراً ثرياً من أثرياء كلكتا، وضاعت ثروته كلها خلال حملة سراج الدولة على كلكتا وكان يؤمل الحصول على تعويض طيب من وراء هذه المفاوضات الدائرة، وكان ذا تأثير كبير في مواطنيه، كما كان على قدر كبير من صفات الهندوس، ومنها قوة الملاحظة، وسرعة البديهة والذكاء، وحسن التصرف، وكان يجمع إلى هذه الصفات رذائل الهندوس، ومنها ضعة النفس والجشع والخيانة، بينما هذه المفاوضات سائرة في طريقها الطبيعي، إذا بسراج الدولة يحاول القيام بعمل حربي طمعاً في



أن يؤثر ما يسفر عنه في سير المفاوضات، ولكنه رأى في صمود الانجليز وقوة بأسهم ما جعله يكف عن الحرب، ويرضى بشروط كيف للصلح. وما انتهت المعاهدة حتى غير سراج الدولة اتجاهه، ووعول على مناهضة الانكليز بكل الوسائل، فتآمر مع السلطات الفرنسية في شندر ناجور، وطلب الى باسي أن يسير من الدكن الى الهوجلي ليطرد الانجليز من ذلك الاقليم. وعلم كيف ووطنن بسر هذه المؤامرة، فعول الرجلان على أن يقوموا بضربة قاضية، وان يغزوا شندر ناجور نفسها قبل أن تصل اليها امدادات جديدة سواء من بوندتشيرو أو من فرنسا. وترأس وطنن القوات البحرية وتولى كيف قيادة الحملة البرية وكان نجاحهما سريعاً ورأعاً فان القلعة، وحاميتها وقوات المشاة والمدفعية كل هذه استسلمت سريعاً للانجليز وكان بينها عدد من الفرنسيين يقرب من خمسمائة.

### مؤامرات

وهكذا ضاعت على سراج الدولة فرصة ضرب الانجليز للفرنسيين وازداد خوفه منهم وكراهيته لهم معاً، وأخذ يتردد بين مسالمة الانجليز ومظاهرتهم بالعداء، فبينما كان يرسل بعض المال كجزء من التعويض المفروض عليه الى كلكتا، إذا به في اليوم التالي يبعث الى باسي هدية سنوية طالبا اليه أن يسرع لانقاذ البنغال من أيدي كيف، ويصدر أمره للجيش بالزحف على الانجليز، ثم يعود ثانية الى الغاء هذا الأمر فاذا جاءت رسالة من كيف مزقها وألقى بها في وجه الرسول. وأخيراً يكتب الرد على هذه الرسالة ويتحرى الأدب واللياقة في هذا الرد. ولقد حدث أن طرد مستر وطنن من حضرته، ثم عاد فأصر بادخاله عليه، واعتذر له بما بدر منه في حقه. وكان سوء أخلاق الأمير وجنونه وسوء سياسته، وإيثاره الدهاء على أوساط الناس وكبارهم، سبباً في أن ينفر منه هؤلاء سواء كانوا من المسلمين ذوي النخوة والصراحة، أم من الهندوس الماكزين الخنوعين، وأن تجتمع كلمة هؤلاء النافرين على الاتهام به وفي هذا يقول كيف في رسالة له الى مستر بيجوت حاكم مدراس (كانت صفاته سبباً في أن تمتعه فئة من الرجال الممتازين في الاقليم. ويمكن أن أقول لك أن مؤامرة واسعة النطاق تحاك خيوطها الآن بمهارة بأيدي عظماء الممالك وعلى رؤسهم حاجت سميت بنفسه، واقد طلبت



مني المعاونة واني لمقتنع كل الاقتناع بأنه لن يكون هناك سلام أو أمان حيث يحكم مثل هذا الشيطان، ومستسمع قريباً عن ثورة اتضع - بدأ الآمال انتراسيين في البناء في هذه البلاد). وكانت المؤامرة التي أشار اليها كليف في رسالته تشمل راجا دولاب رام وزير المالية ومير جافير القائد العام للجيش واجت سبت أغني ممول في الهند. وكان الانجليز على علم بها كما جاء في رسالة كليف وكان الاتصال مستمرًا بين المتآمرين في مرشد اباد والحاس الانجليزي في كلكتا.

وفي هذا المجلس الذي كان بطيئاً في قراراته، وقف كليف الى جانب المؤتمرين واستطاع أن يتغلب على الآراء المعارضة، وان يحصل على موافقة المجلس على مساعدة أولئك المؤتمرين لخلع سراج الدولة عن عرشه واجلاس مير جافير مكانه وحصل المجلس من مير جافير هذا في نظير العرش المرتقب على وعد بدفع تعويضات مجزية للشركة الانجليزية وموظفيها ولجنود الجيش والبحرية وأعضاء المجلس.

قد يبدو ما لقيه الانجليز على يد سراج الدولة في غزوته الاولى، وما كان محتملاً أن تلقاه تجارتهم من بوار إذا هو ظل على العرش مبرراً لمشاركتهم في التآمر عليه. ولكن لم يكن هناك ما يبرر اتباع كليف سياسة ذات وجهين مع الرجل؟ كان يكتب لسراج الدولة بعبارة معسولة كانت تنزل السكين والظلمة في قلبه. وفي نفس البريد الذي يحمل تلك الرسالة كان يبعث إلى مستر وطس برصالة يجيء فيها « قل لمير جافير لا تخش شيئاً وإني سأمدّه بخمسة آلاف مقاتل لا يعرفون التقهر، وأؤكد له أنني سأسير إليه ليل نهار وسأفنى بجانبه حتى آخر رجل لدي ».

وكان من المستحيل أن مؤامرة واسعة النطاق كهذه تبقى سرّاً دفيناً. فقد وصل إلى سراج الدولة ما أثار شكوكه، ولكن أوميشند استطاع بلباقته وكياسته، وسرعة بديهته، أن يهدئ من روع الأمير بما كان يخترعه من حكايات وأقاصيص حتى زالت شكوك سراج الدولة، وأوشكت المؤامرة وقد أجيد حبك أطرافها أن تؤتي أكلها حين علم كليف بأن أوميشند يستطيع أن يبق على أرواح الكثيرين، أو يقضي عليها لا سيما أرواح واطس ومير جافير ومائر المؤتمرين، ولقد شاء أوميشند أن يستفيد من مركزه اقوي، وأن يملئ إرادته،



فأفصح عن طلباته وحددها بثلاثمائة ألف جنيه ثمناً لسكوته وعدم إفشاء سر المؤامرة فضلاً عن مساهمته فيها، وغضب المجلس لهذا الطاب واعتبر اقدام أوميشند عليه خيانة منه لا تغتفر، وخشي ما قد يؤدي إليه من نتائج وسرت الخيرة في جو المجلس.

ذلك أن أوميشند الذي استطاع أن يكبت عاطفة الكراهية الشديدة التي يكنها لسراج الدولة مغتصب ماله، الذي جعله لا يملك شيئاً البتة بعد أن كان من سراق كلكنا، وأن يندس في حاشية الأمير حتى أصبح أقرب المقرين إليه بل صار بمثابة الناصح الأمين له، يؤخذ برأيه ويعمل به، ووصل إلى ما وصل إليه بدهائه ولباقتة وكياسته.

وكان في مركزه الجديد عين المتآمرين السامرة، وأذهم السمعية، ينقل إلى مركز قيادة القوة المتآمرة في كلكنا كل ما يهمها الوقوف عليه. وكان ينفذ كل ما يصدر إليه من هذه القيادة مستغلاً في ذلك حظوته عند الأمير، وتقربه منه.

دار في رأس كليف كل هذا في سرعة وأدرك خطورة الموقف، وشاء أن يخرج من تفكيره السريع محل يحفظ سرية المؤامرة حتى يتم نجاحها.

وكما كان كليف يفكر كذلك كان أعضاء المجلس يفكرون كل على طريقته الخاصة، فالكمل كان يقدر خطورة ذلك الداهية البنغالي. ولهذا استولت على الجميع الخيرة. ولكن كليف تابع أوميشند في تفكيره وشاء أن يخدعه ورأى أن إخداع مثل هذا الرجل جائز. فلا بأس في أن تبذل له الوعود بسخاء ليؤمن جانبه في تلك الآونة الحرجة، حتى إذا تم الأمر، وتحققت المؤامرة يهمل أمره، ويكون نصيبه الازدراء، والتسكير له جزاء استغلاله لحلفائه في مثل ذلك الموقف.

وشرح كليف ذلك للمجلس فافتنع بوجاهة الفكرة، ولكنه لم يجد وسيلة لخداع أوميشند الذي كان يصر على أن تضاف مادة إلى المعاهدة المعقودة بين مير جافير والانجليز، وأن يرى بعيني رأسه تلك المادة التي يجب أن تنص على طلباته التي لم تكن تنحصر في الرشوة. بل شاء أن يعطى تعويضاً كبيراً عما لحقه من خسائر من جراء حملة سراج الدولة على كلكنا، إلا أن كليف لجأ إلى طريقة التزوير فأعد وثيقتين إحداهما حقيقية ولونها أبيض. وثانيتهما مزيفة ولونها أحمر. وذكر اسم أوميشند والبند الذي طلب إضافته في الوثيقة الحمراء ثم وجدت



صعوبة أخرى فإن الأميرال واطسون لم يشأ أن يوقع الوثيقة الحمراء ، ورأى كليف أن  
خلو الوثيقة من توقيع الأميرال قد يثير شك أو مشند . وبالتالي قد يؤدي إلى إهيار المؤامرة  
فلم يتأخر عن تقليد توقيع الأميرال على الورقة الحمراء . ويقول جنج في كتابه عن كليف  
أن الأميرال وإن امتنع عن التوقيع إلا أنه أباح للمجلس استعمال اسمه بالطريقة التي يراها .  
وهكذا تهيأت الظروف للقيام بالعمل الحاسم ، وهرب المستر وطس من مرشد أباد سرّاً  
وبدأت قوات كليف تتحرك فكتب إلى الأمير بالهجة تختلف كثيراً عما كان يكتب له به  
قبلاً ، فذكره بأخطائه السابقة مع الانجليز ، ودعاه إلى التحكيم فيما بينهما من اختلاف في قسم  
بازار على أن يكون مير جافير حكاماً ، وأعلنه أنه نظراً لقرب سقوط الأمطار . ولما كان انتظاره  
رداً آمنه قد يحتاج عدة أيام فإنه رأى أن ينتظر هو ورجاله ردّ عظمته على مقربة من  
مرشد أباد .

#### معركة بهارسي

اجتمع سراج الدولة حالاً جميع قواته ، وصار لملاقاة الانجليز . وكان من خطط المؤامرة  
أنه عندما تواجه جيوش سراج الدولة جيوش الانجليز ينفصل مير جافير برجاله عنها وينضم  
إليهم إلى قوات كليف . فلما جاءت اللحظة الحاسمة تغلب على مير جافير خوفاً ، ونسي أطباعه  
والوثيقة التي وقع عليها مع حلفائه ، فتردد وطال تردده إلى أن استبدت بكليف مخاوفه  
من النتيجة لغموض الردود التي كان مير جافير يرسلها إليه على استفساراته عن سبب تأخيرها .  
وكتب كليف من كاتوة إلى المجلس في كلكتا بتاريخ ١٩ يونيو يقول : ( يعتريني قلق  
من جراء قلة الأنباء وغموضها ، فإذا لم يكن مير جافير خائناً ، فإن بروده أو ضعف قوته قد  
يكون سبباً في فشل الحملة ، وإنما أحاول الآن محاولة أخيرة للتأثير على مير جافير بوصاية أحد  
البراهمة لينضم إلينا . ولقد اخترت بلاسي لتكون ميداناً للمعركة القادمة ، وذكرت له  
أنه إذا لم يفعل ما طلبت منه أو لم يقدم دليلاً على حسن نيته في الوفاء بوعده ، فاني لن أعبر  
النهر ) .

وهكذا كان كليف في موقف دقيق ، إذ أنه لم يكن لديه ما يحمله على الاطمئنان إلى  
اخلاص حليفه . ومهما يكن من شأن كفاءته العسكرية . أو قدرة ونظام من كانوا تحت إمرة ،



فانه مما لا شك فيه أن انهزام قوات مير جافير التي كانت تبلغ في مجموعها عشرين ضعفاً لم يجد قواته لم يكن بالأمر الهين . وزاد في حرج مركز كليف أنه كان لا بد له من عبور النهر ليلقي أعداءه، فإذا قدر له أن ينهزم فقد كان لا بد له من العودة عبر النهر، وفي ذلك كارثة مؤكدة إذ لا يحتمل أن ينجو من رجاله في هذه الحالة أحد . وهكذا حدث لكليف ما لم يحدث له من قبل، إذ فارقه سرعة بديته، وخافته شجاعته، ازاء المسؤولية الخفيفة التي قد تترتب على اتخاذ قرار ما . فعقد مجلساً حربياً وفي هذا المجلس رأت الأغلبية العدول عن الحرب ونزل كليف على رأي الأغلبية . ثم استدرك قائلاً انه لم يسبق له عقد مثل هذا المجلس . وانه إذا أخذ بهذا الرأي فانه لن يقدر للبريطانيين أن يسودوا اقليم البنغال يوماً ما . وانفض المجلس، وانفرد كليف بنفسه في ظل شجرة، وقضى ساعة يفكر وأخيراً تنبّهت حواسه القديمة وبرزت صفاته التي لاؤمته طوال حياته، فقرر ترك كل شيء اظروفه، وأصدر أوامره بالاستعداد في الحال لعبور النهر في الغد .

وعبر الانجليز النهر وآووا الى خيمة من أشجار المنجوق قرب بلاسي، ولم يكن بينهم وبين أعدائهم سوى مسافة ميل واحد . وقضى كليف ليله ساهراً لا يغمض له جفن يستمع الى قرع طبول جيش سراج الدولة فاستولى عليه الفزع اذ كان يتوقف على تلك المعركة سواء في حالة النصر، أم في حالة الهزيمة، نتائج على غاية الخطورة، هذه النتائج التي ستقرر بعد بضع ساعات من بدء المعركة .

ولم يكن سراج الدولة أحسن حالاً من كليف إذ كانت أعصابه مهتاجة، واستبدت به المخاوف وتمكن منه القلق، وأخذت تترافق أمام عينيه أشباح ضحاياهم قتلوا في الغرفة السوداء . فاندمدت ثقته في قواده وحاشيته، حتى أصبح يستشعر الخوف من كل من يتقدم اليه، أو يقترب منه، كما كان يخشى الوحدة في نفس الوقت، ولكنه اضطر الى أن يفضل الوحدة فانفرد بنفسه في خيمته، تنتابه الهواجس والأفكار .

وطلع نهار ذلك اليوم الذي تقرر فيه مصير بلاد الهند فبعد شروق الشمس بدأت جنود الأمير تنساب من المعسكر متجهة صوب الانجليز وكان عددهم أربعين ألفاً من المشاة مسلحين بالكرات النارية والحراب والسيوف والتوس والنشاب . فاندشرت هذه القوات



في السهل فلا تله على سعتيه ، يحميهم خمسون مدفعاً ضخماً يجر كلاً منها بضعة ثيران بيضاء ويدفعه من الخلف فيل هائل . ومدافع أخرى صغيرة ، يشرف عليها جنود فراسيون كانوا من الوجهة الحربية أكثر أهمية من أولئك المشاة على كثرتهم . أما الفرسان ، وقد بلغ عددهم خمسة عشر ألفاً من الرجال الأشداء الذين جيء بهم من المقاطعات الشمالية ، كانوا كما لاحظ كليف يختلفون كثيراً عن أهالي إقليم الكرنات . ولم يكن لديه لصد تلك الجموع والتغلب عليها سوى ثلاثة آلاف رجل منهم ألف جندي انجليزي والالفان الباقيان هنود ، دربوا تدريباً انجليزياً ، ويقودهم ضباط من الانجليز .

وبدأت المعركة . كما يقول كليف « في الساعة السادسة صباحاً بدأوا هجومهم علينا بقذائف مدافعهم الثقيلة ، يصحبها هجوم الجيش برمته . وضغطوا علينا ضغطاً شديداً بضعة ساعات ، وصار موقفنا سيئاً جداً ، إذ كنا محصورين بين الأشجار ، ووراءنا شاطئ طيني . وكان الرد على طلقات مدافعهم بمنحليها مستحيلاً لصعوبة حركة مدافعنا ، ولأنهم كانوا يحيطون بنا على شكل نصف دائرة ، فرأينا أن ننتظر قدوم الليل لنقوم بهجوم عام نثقلنا مما كنا فيه ، وبقينا في مراكزنا صامتين . ولكن حدث عند الظهر أن انسحب العدو من الميران ، وآوى الى معسكراته » . واكتفى سراج الدولة بأن أمر المدفعية باطلاق النار على الانجليز ، ولم يكن الاطلاق محكماً فكانت القذائف تسقط بعيداً عن أهدافها وأجابت مدفعية الانجليز بالمثل ، ولكن قذائفهم سقطت وسط معسكر الأمير فقتلت كثيراً من ضباطه ، وعمت القوضى وانتشر الدعر . وكان الأمير أكثر من سواه ذعراً ورعباً ، لاسيما بعد أن سقط المطر وأصاب ذخائره بالتلف . وبعد أن مات مير مادان أشد قواد الأمير اخلاصاً له . فلما تقدم راجا دولاب رام وأسر اليه بالتقهقر . وكانت هذه النصيحة لحليفه جزءاً من المؤامرة المتفق عليها ، كان سراج الدولة كأنما ينتظر من يدلي اليه بمثل هذه النصيحة فأمر بتنفيذها فوراً . وكان هذا التنفيذ سبباً فيما حل به بعد ذلك من كوارث متعاقبة . فان كليف انتهر الفرصة وأمر جنوده بالتقدم في الحال ، وساعد على نجاح هذا التقدم ان جنود سراج الدولة لم تكن عندهم رغبة في القتال ، ولا كان النظام سائداً بينهم . وهكذا انتصر جيش كليف على قلة عدده على جيوش الأمير . وكانت الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم ، ولم



يصمد في الميدان سوى الجنود الفرنسيون الذين ظلوا يقاومون حتى الساعة الخامسة مساءً .  
وأخيراً هربوا فيمن هرب . وهكذا لم يجد الانجليز أمامهم سوى العناد الحربي من المؤن  
والذخائر التي تركتها قوات الأمير في هربها . فلم يخسر كليف ذير اثنين وعشرين قتيلاً  
وخمسين جريحاً دفعها ثمناً لامبراطورية غنمها لبلادها في تلك المعركة .

لم يقدم ميرجافير أية مساعدة للانجليز خلال المعركة ، ولما رأى أن النصر حليفهم وأن  
الواقعة تنتهي سريعاً على هذا النحو انسحب بالجيش الذي كان تحت امرته من الميدان .  
وأرسل تهانته إلى حليفه . وفي الصباح ذهب إلى معسكر الانجليز على ظهر فيل وهو يتوغل  
استقبلاً رائعاً . ولكن الذي حدث أن الحرّاس حين رأوه ورفعوا أصواتهم لتحيته ،  
ظنّ أنهم يريدون به شرّاً وشاء أن ينسحب . ولكنه رأى كليف نفسه يتقدم لمصافحته  
فترجل عن فيله ، وطاق كلا الرجلين الآخر ، وحيّاه كليف بقوله « يشرفني أن أستقبل في  
معسكري حضرة صاحب العظمة أمير البنغال وبيهار وأوريسا » . فارتاحت نفسه واطمأنّ  
وأثلج صدره ، لا سيما بعد أن طالب منه كليف أن يسير توتاً إلى مرشد أباد ويباشر سلطانه  
هناك » .

وكان سراج الدولة بعد أن هرب من ميدان القتال قد أسرع في العودة إلى مرشد أباد  
على ظهر جبل سريع ، فوصلها بعد أربع وعشرين ساعة ، وجمع حوله مستشاريه يتدبر معهم  
الامر ، فأشار عليه أكثرهم حكمة بأن يسلم نفسه للانجليز الذين انفعوا به أكثر من  
أن يخلعوه من عرشه ، أو يسجنوه ، فثار لهذه المشورة واتهم المشيرين بالخيانة ، وأشار عليه  
غيرهم بمواصلة الحرب مع الانجليز ، ورأى هو وجهة هذا الرأي ، فأصدر أوامره بالاستعداد  
للحرب ، ولكن قواه المعنوية كانت قد انهارت ، وقفى على ما بقي منها صماعة نبأ وصول  
ميرجافير على رأس جيشه ، فزاد ذعره ، ولم يعد يحتمل تلك الانفعالات النفسانية التي أخذت  
تتأثر به ، فارتدى ثياباً رثة ، وحمل معه كيساً مملوئاً بالجواهر ، واتخذ من الليل ستاراً ، وتسلل  
من نوافذ قصره ، وصحبه تابعان وزل ثلاثهم إلى قارب كان ينتظرهم في النهر وركبوه إلى  
مدينة باتنا .

وفي يوم ٢٩ يونيو وصل كليف إلى مرشد أباد على رأس مئتي جندي انجليزي وثلاثمائة

هندي، ونزل  
وأعدّ الاحتفال  
(المسند) وأ  
يقدمها إلى الأ  
القاعة ، وهذه  
والآن و  
سبقها من خ  
المؤتمر الذي  
هذا الاجتماع  
سبق أن اتفق  
هو أو مشيند  
احتفائه به  
هو قراءة  
بالشركة الانجليزية  
قائلاً بالانجليز  
الهندستانية  
فهو أو مشيند  
العقلية إلى حد  
فتأثر بما رآه  
وقواه ووعد  
لم يعيش غير  
ذلك مات .  
ولم يكر  
فقد حدث



هندي، ونزل في قصر كان قد أعدّه له مير جافير من قبل، وعسكر جنوده في حدائق القصر .  
وأعدّ الاحتفال بتولية مير جافير على عرش البنغال على عجل ، وقاد كليف الأمير الجديد الى  
( المسند ) وأجلسه عليه وأهداه هدية ذهبية ، كانت العادة في الهند قد جرت على أن  
يقدمها الى الأمير يوم توليته ذوو الحيثية في الأقليم . ثم التفت الى الجماهير التي ملأت جوانب  
القاعة ، وهناك تلك الفرصة الطيبة التي مكنتهم من التخلص من الحاكم الظالم سراج الدولة  
والآن وقد تمّ السكليف وحلفائه ، تنفيذ خطتهم ، وقد بقيت خطوة لا تقل أهمية عما  
سبقها من خطوات ، وهي خطوة اقتسام الغنائم ، وتدير أمر المملكة الجديدة ، وعقد  
المؤتمر الذي كان عليه أن يبت في هذه الأمور في منزل جاجيت سيت الممول العظيم ، وحضر  
هذا الاجتماع كل من دعوا اليه . وكان كل منهم مطمئناً الى تحقيق رغائبه ، لانسيا وقد  
سبق أن اتفق على قرارات هذا المجلس مقدماً . وكان أكثر هؤلاء الأعضاء ثقة واطمئناناً  
هو أوميشند . وذلك لما كان يلقاه من كليف من مجاملة وعطف . فقد كان هذا يسرف في  
احتفائه به خداعاً ومداراة ، حتى تمّ له الفوز والانتصار . وكان أول عمل يجب اجراؤه  
هو قراءة الوثيقة التي كانت قد أبرمت في كلكتا ، فأخرج مستر ميكرفتون الموظف  
بالشركة الانجليزية الوثيقة البيضاء لتلاوتها ، وحينئذ مال كليف على أذن مستر ميكرفتون  
قائلاً بالانجليزية « جابه أوميشند بالحقيقة » فتحول ميكرفتون الى أوميشند وقال له باللغة  
الهندستانية ( ان الوثيقة الحمراء كانت خدعة يا أوميشند . وليس لك أن تؤمل شيئاً ) .  
فهوى أوميشند بين أتباعه فاقد الحس والشعور . ثم أفاق فيما بعد ، وقد اضمحلت قواه  
العقلية الى حدّ كبير وما زالت تضحجل حتى جنّ الرجل . وقابله كليف يوماً ما في طريقه  
فتأثر بما رآه منه ، وأشار عليه بأن يحج الى الأماكن المقدسة في الهند لعله يسترد صحته  
وقواه ووعدّه اذا ما تمّ له ذلك بتعيينه في أحد مناصب الدولة الكبرى . ولكن أوميشند  
لم يعش غير بضعة أشهر كان خلالها يأتي أفعالاً مضحكة تنير الشفقة في أقسى التلوب وبعد  
ذلك مات .

ولم يكن أوميشند الضحية الوحيدة ، للثورة فان سراج الدولة كان الضحية الثانية .  
فقد حدث أنه وقع أسيراً في يد مير جافير عقب هربه بأيام قلائل ، فألقى بنفسه على الأرض



مدعوراً بن قديم مير جافير مسترحماً، مستغنياً، وهو الذي ما كان للرحمة في قلبه مكان وكاد مير جافير يرحم أسيره، لولا تدخل ابنه ميران الذي كان شاباً في السابعة عشرة من عمره، وكان قد نشأ على غرار سراج الدولة. وكان يتصف بكثير من صفاته، فطلب من أبيه أن يكل إليه أمر الأسير، وأجابه الأمير الجديد الى طلبه، فقيد سراج الدولة الى غرفة سرية، حيث وافاه اليها زبانية الموت والعذاب وعلى رأسهم ميران.

### الثروة

ومن ثم بدأت الثروة تنهال على الشركة وموظفيها وكانت أول رسالة أرسلت إلى قلعة ولیم عبارة عن مبالغ ثمانمائة ألف جنيه كلها من العملة النضية وكان الاسطول الذي حمل هذه الرسالة مكوناً من مائة مركب تفرغ عليها الاعلام، وتصدح فوق ظهورها الموسيقى، كأنما هي موكب النصر، وكان هذا المال سبباً في بعث الحركة والنشاط في مدينة كالكتا بعد أن كانت مهجورة قبل انتصار كليف، وانتعشت التجارة في تلك المستعمرة الانجليزية من إقليم البنغال. وظهرت آثار النعيم والترف على كل بيت انجليزي. أما كليف نفسه فقد خصه من هذا المال مبلغ يتراوح بين مئتي وثلثمائة ألف جنيه، ولو شاء زيادة عن ذلك لنال فلم يكن هناك ما يحول بينه وبين تحقيق أية رغبة يبدوها في هذا الشأن. وتواتت الهدايا والهبات من حكومة مير جافير على الانجليز الذين كانوا كأنما عثروا على كنوز كانت مخبوءة من قبل.

ولقد أصبحت تلك العلاقات التي قامت بين مير جافير وكليف موضوع اتهامات أثرت في مجلس العموم البريطاني. ووجهت فيها الى كليف تهمة الرشوة واستغلال المركز الذي صار فيه، والسرقة باكراد من حليف ضعيف، على أنه من انصاف الرجل أن نقول إنه لم يكن موظفاً رسمياً يفرض مشيئته على الناس، بل كان موظفاً في شركة تجارية، وإن الهدايا التي قدمت اليه كانت تجيزها العوائد المتبعة في بلاد الهند في ذلك الحين، وإن لم تكن معروفة في إنجلترا. ولو كان أحد الذين اتهموه بتلك التهم، في مثل مركزه ورأى كنوز بلاد البنغال تنفتح تحت قدميه في مرشد أباد، لعلم كيف كان كليف قنوعاً حين أراضى لنفسه ما وصل اليه. فضلاً عن أن الرجل كان صريحاً فلم يخف عن الناس ما وصل اليه. بل جاهر دائماً بأنه قد أصاب من



ثروة الأمير المنهزم ما جعله ثرياً . وهذا يدل على أنه كان يعتقد أنه لم يأت سوءاً لأنه لم يمس مصالح الشركة، بل زاد من الأرباح التي كانت تجنيها . ولا هو فرط في حقوق وطنه، بل كسب له أقاليم جديدة واسعة وغنية وآهلة بالسكان . وإنما قبل هدايا في أقطار تبيح تبادل الهدايا كما وإنه لم يكن هناك نص في دستور إنجلترا يحرم عليه ذلك . ولكن ما كولي يرى أن كليف كان مخطئاً على كل حال لأنه كان قائداً ، والفائد خادماً لحكومته وليس لمواها . وتبعاً لذلك فكل هدية تقدم إليه يجب أن تكون عن طريق حكومته، أو على الأقل تكون هذه الحكومة على علم بها وتوافق عليها ، وتنطبق هذه القاعدة حتى على الهدايا التي لا تعدو أن تكون نيشاناً أو وساماً . وأن قبول الضباط لمثل تلك الهدايا المغربية إذا تم بغير علم ولا موافقة الحكومة التي يتبعونها إذا صار ذلك قاعدة معمولاً بها ، فإن الأمر كان يفسد والفوضى تعم . حقاً لم يكن هناك قانون يحول دون قبول الهدايا من الحلفاء والاصدقاء . ولكن المنطبق وصلاصة الذوق كانا يقضيان على كليف بعدم قبول هدايا مير جافير . واطمأن مير جافير الى عرشه والى انه لن تستطيع يد أن تمتد اليه بسوء الا اذا تخلت عن حمايته تلك اليد التي رفعتة .

وكان مير جافير رجلاً حسن الأخلاق حميد السيرة لكنه لم يكن على شيء من الصفات التي تكسبه محبة الشعب واحترام الأمراء ، لا سيما وقد أصبح انتقاد أولي الأمر ميسوراً وخلعهم جائزاً بعد تلك الثورة الماضية ، فلقد كان مير جافير نفسه وليد الثورة . ولهذا لم يكن عجيباً أن تنور النفوس من جديد تبعاً لخلاف وجهات النظر والعقائد ، وان يتولى نواب مقاطعة أود زمام هذه الثورة ، وان يتخرج الموقف ويصبح جو السياسة في إقليم البنغال ملبدًا بالغيوم . ولم تكن هناك قوة تستطيع أن تحمي مير جافير من هذه الأخطار ، وتعيد الأمور الى نصابها سوى قوة كليف وكفاءته . ولكن الذي حدث انه في هذه الظروف العصيبة وصلت سفينة الى كلكتا تحمل بريداً من مقر الشركة في إنجلترا يبدو انه كتب قبل أن تصلهم أنباء معركة بلاسي وفيه قرار مديري الشركة أن يتولى السيطرة على ممتلكات الشركة في إقليم البنغال حكومة مكونة من أشخاص لم يكن كليف واحداً منهم . وكان أعضاء الحكومة الجديدة الذين وقع عليهم الاختيار لا يتصف واحد منهم بأية قدرة أو كفاءة



لجل أعباء تلك المسؤولية الكبيرة ، وأظهروا شعوراً طيباً نحو كليف فتضامنوا في التنجى عن قبول هذا التعيين متحملين مسؤولية مخالفة أوامر الشركة ، وصاموا كليف مقاليد الأمور يتصرف فيها كيف يشاء .

ولما وصلت الى مقر الشركة في لندن أنباء انتصار كليف الباهر في بلاسي عدل المدبرون قرارهم في الحال وأصدروا أمرهم بتعيين كليف حاكماً عاماً لممتلكات الشركة بالبنغال مع تقديم تقديرهم وثنائهم لما قام به من جلائل الأعمال . وبهذا أصبحت سلطة كليف مطلقة وفاقت في قوتها كل ما كان دوابليه يتمتع به في الجنوب . وكان مير جافير يعتبره سيده ومنقذه فقد حدث إنه عنف مرة أحد كبار الاشراف لأن أتباعه كانوا قد اشتبكوا في عراك مع بعض جنود الشركة من الهنود وقال له خلال حديثه « هل أنت في حاجة لأن أقول لك من هو الكولونيل ، وبأي قدر قد حباه الله من التكريم والتعظيم ؟ » . فنفى الشريف عن أتباعه تهمة اعتدائهم على أتباع كليف . ويقول ما كولي إن كليف كان ينظر الى الهنود والاوربيين بمنظار واحد ، فالانجليز كانوا يرون فيه القوة التي تستطيع أن تكره مير جافير على تنفيذ تعهداته له ومير جافير كان يرى فيه حامى ملكه من شعبه المتمرد ، وجيرانه من الأمراء الطامحين والذين كانوا يتحينون له الفرص .

وأرسل كليف فوراً أحد قواده الى شمالي اقليم الكرنات حيث كان للفرنسيين نفوذ كبير ، وكان لابد من اجلائهم عنه . وأثبت نجاح حملة فوراً أن كليف كان موفقاً في اختياره لقيادتها .

وبينما كان جزء كبير من قوات الانجليز في البنغال منهمكاً في الحملة صالفة الذكر ، إذ هدد الحدود الغربية لذلك الاقليم خطر جديد عظيم الشأن . وتفصيل ذلك أن المغول العظيم كان سجين قصره في دلهي . وكان أكبر أبنائه شاه علام العلوية في يد كل من يريد تسخيره لأغراضه ، فكان مرة أداة في أيدي المهرات ، ثم أصبح فيما بعد صنيعاً للانجليز . وكان الذين يسخرونه في تحقيق أغراضهم إنما يفعلون ذلك لما يتمتع به الأمير من احترام الشعب الهندي كله له . ولهذا السبب نفسه إستماله أمير أود إليه ، فتجمع له تحت لوائه جوع كبيرة من



المغامرين الحربيين من جميع أنحاء البلاد، وبهذا تألف تحت إمرته جيش كبير قوامه أربعون ألف رجل يختلفون بعضهم عن بعض في الجنس والدين واللغة والعادات، ووضع الأمير الخدمة التي يستطيع بها خلع ذلك الرجل الذي استند الى حراب الانجليز في تولي عرش البنغال ليتولى مكانه أميراً على أقاليم البنغال، وأوريسا وبيهار.

وعلم مير جافير النبأ ففرع واستبد به الخوف لما سمع، ورأى أن الحل الوحيد لتلافي ذلك الخطر الدائم هو عقد محالفة مع شاه علام ولو اضطره الأمر الى دفع مبلغ جسيم. وكان ذلك الخاطر هو نفس الخاطر الذي كان دائماً يخطر على بال من جلسوا قبله على عرش البنغال إذا ما هددتهم خطر على الحدود، ذلك لأن سكان هذا الأقليم كانوا دائماً محبين السلم، ويخشون الحرب، ويدروون خطرها بأي ثمن ما دام هذا الثمن لا يتمدى أن يكون مالا. ولكن كيف سخر من هذا الخاطر وكتب لمير جافير «إذا أنت فعلت ذلك اجتمع عليك جيرانك جميعاً وهددوك نفس التهديد ليحصلوا منك على جميع ما لديك من مال حتى لا يبقى لديك شيء في خزانتك، وأنا أرجو يا صاحب العظمة أن تنق في حلفائك الانجليز وفيما لديك من جنود».

وبمثل هذا الأسلوب كتب كليف الى حاكم باتنا بأن يقاوم الى آخر رجل لديه، وأن يطمئن الى أن الانجليز قوم أوفياء وأقوياء، وأنهم لن يتأخروا عن مد يد العون الى أصدقائهم في الشدائد وأنهم لا يتوانون عن خوض غمار الحرب في سبيل ما سبق لهم أن حاربوا من أجله.

وفقد كليف وعده، ذلك أن شاه علام حاصر باتنا وكان على وشك اكتساحها حينما بلغته أنباء زحف كليف صوب المدينة. ومع أن القوات الانجليزية لم يتجاوز عددها أربعمائة وخمسين أوروبياً، وألفين وخمسمائة وطني، إلا أن ما كان قد اكتسبه من صيت في الحروب جعل اسمه مصدر رعب وفزع، فما لاحت طلائع الجند حتى ولى المحاصرون الأدبار وحاول الفرنسيون المتطوعون في جيش الأمير شاه علام إقناع ممومو بالشبات، ولكن محاولاتهم هذه ذهبت أدراج الرياح. وبمثل هذه السهولة تبدد ذلك الجيش الضخم الذي كان يهدد مرشد آباد ويسبب لاميرها كثيراً من القلق والفرع.



وعاد الغائب المنصر الى قلعة وايم وبهذا تبددت مخاوف مير جافير ثقة وفرحاً وأهدى  
منقذه هدية سنية . ذلك أن الشركة الانجليزية كانت تدفع إيجاراً لأمير البنغال عن تلك  
المساحات الشاسعة التي كانت تشغلها جنوبي كلكتا . وكان هذا الإيجار لا يقل عن ثلاثين  
ألف جنيه سنوياً . فلما هدأ بال مير جافير من ناحية شاه علاّم ، ورأى أن يقدم لكليف  
هدية مناسبة لم يجد خيراً من أن يوقف ذلك الإيجار على كليف مدى حياته .

وقبل كليف هذه الهدية ووافقت ادارة الشركة على هذا القبول ، ولكن صداقة مير جافير  
لم تدم طويلاً ، فلقد كان يساوره شعور قوي بأن الحليف القوي الذي أعانه على بلوغ الأمانة  
قد يهدمه في أية لحظة ، وإنه بهذا الوضع كان تحت رحمة كليف ، وساء أن يكون مهدداً هكذا  
باستمرار ، فأخذ يبحث عن حليف جديد يدرك به خطر الانجليز إذا هددتهم منهم خطر ما في  
يوم من الأيام ، ولم يفكر أبداً في أن يكون حليفه من الهنود لانه كان يعتقد كل الاعتقاد  
أن الهنود ما كانوا ليحجروا يوماً على الوقوف أمام كليف ، إذ كانوا يرهبونهم ، وكذا لم يفكر  
في الاستعانة بالفرنسيين ، لأن قواتهم في إقليم البنغال كانت قد تلاشت فاتجه ببصره الى  
الهولنديين الذين كانوا يتمتعون بصيت ذائع لم تخدشه بعد الوقائع . فهم كانوا قد استولوا  
على مستعمرات الاسمان والبرتغال أثناء حروب الاستقلال واحتكروا تجارة الشرق الأقصى  
وجزر الهند الشرقية التي احتلوها ، وكانوا قد استقروا في امبوينيا في سنة ١٦٢٣ ، وفي سلبيز  
في سنة ١٦٦٣ ، وفي ملقه سنة ١٦٤١ ، وفي جزيرة سيلان في سنة ١٦٥٨ ، وكانت عاصمة  
الامبراطورية الهولندية في الشرق الأقصى في باتافيا حاضرة جزيرة جاوة . ولم تكن أبناء  
هزيمة هولندا في أوروبا قد بلغت الهند بعد ، فاتصل مير جافير بمقر الشركة الهولندية في  
شينسورا واتصلت هذه الشركة بولاة الأمور في باتافيا بارسال حملة لا تقل في قوتها عن القوة  
الانجليزية الموجودة في إقليم البنغال . وسرّ ولاة الأمور في باتافيا بهذا العرض فقد كانوا  
يشكون من انفراد الانجليز بتجارة الملح وقصر استخدام من يقومون ببعض الاعمال الملاحية  
في الهوجلي على الانجليز ، وقيام هؤلاء بتفتيش جميع المراكب القادمة الى الهوجلي ، ورأوا فيه  
فرصة لخدمة وطنهم وأشخاصهم على السواء . فقد كانوا يطعمون في مثل الثراء الذي أصابه الانجليز  
في تلك البلاد ، ولهذا جهزوا حملة قوية حملتها سبع سفن كبيرة صارت بها من جاوه حتى بلغت

الهوجلي فجاء  
وكانت الظر  
لحاربة القر  
رحب سرّاً  
لانجلترا في  
الحرص على  
القوات الهو  
مثل هذا الم  
في النهر فب  
أحضارهم و  
أن يتخذ قر  
ضباطه على

وحاول  
بسته وثلاث  
كانوا يحيط  
التفوق است  
وأمرؤا مع  
فاستسلمت  
الهولنديون  
اللازمة لحف  
قابلين للعق



الهولندي جفاة في أكتوبر سنة ١٧٥٩. وكان عدتها خمسة آلاف مقاتل نصفهم من الأوربيين. وكانت الظروف ملائمة للهولنديين، إذ كان جزء كبير من قوات كليف في إقليم الكرنات لمحاربة الفرنسيين وكان ما لديه من قوات لا يستطيع مكافحة هؤلاء الغزاة. وبلغه أن مير جافير رجب سراً بالهولنديين. وكانت هناك صعوبة أخرى تواجه كليف هي أن هولانده كانت صديقة لـ إنجلترا في أوروبا، وذلك في وقت كانت بريطانيا فيه في حرب مع فرنسا، وكانت تحرص كل الحرص على ألا تحارب هولانده في نفس الوقت. وكان كليف يخشى أن يشتبك مع هذه القوات الهولندية فيغضب ولاية الأمر في لندن فلا يوافقون على عمله، بل قد يتعرض من جراء مثل هذا العمل للعقاب والحساب، إلا أنه كان مقتنعاً بأنه لو سمح لهؤلاء الهولنديين بالمرور في النهر فبلغوا مقر الشركة التي يتبعونها في شنسورا فان مير جافير سيأتي بنفسه حتماً بين أحضانهم ويصبح الموقف خطراً على السيادة الإنجليزية في إقليم البنغال كله. ولهذا رأى أن يتخذ قراراً سريعاً وحاسماً على ضوء هذه المعلومات دون أي اعتبار خارجي ووافقه ضباطه على ما ذهب إليه.

\*\*\*

وحاول الهولنديون أن يعمروا بالقوة وكانت كل سفينة من السفن التي تحملهم مجهزة بستة وثلاثين مدفعاً. وكانت بينهما سفينتان مجهزة كلاهما بستة وعشرين مدفعاً. ولكن الإنجليز كانوا يحيطون بهم برّاً وبحراً، إلا أن العدو كان متفوقاً في القوة عدداً وعدة. ومع هذا التفوق استطاع الإنجليز أن ينتصروا على الهولنديين وأن يستولوا على سفنهم بعد أن قتلوا وأمروا معظم رجالهم من الأوربيين. وعقب هذا الانتصار تقدم الإنجليز نحو شنسورا فاستسلمت بسرعة. وأمل كليف شروط الصلح في شنسورا. ومن هذه الشروط أن يتعهد الهولنديون بالألا يقيموا استحكامات دفاعية في تلك المدينة، والألا يجندوا أكثر من القوة اللازمة لحفظ النظام في مؤسسات الشركة، وأنهم في حالة مخالفة أحد هذه الشروط يكونون قابليين للعقاب الذي ينزله بهم الإنجليز.



المودة الى انجلترا

بعد هذا النصر الذي توج اسم كليف في انجلترا باكليل الغار قبل أن يذهب هو اليها حتى قال الوزير العظيم بت عنه في مجلس العموم ( لقد فقدنا المجد والشرف والصيت الطيب في كل مكان ما عدا الهند لأن العناية الالهية قد وهبت الوطن هناك قائداً عبقرياً فذا لم يسبق له أن درس فنون الحرب . ومع ذلك فقد هاجم بحفنة من الرجال جيشاً هائلاً دون خوف أو وجل هذا الرجل الذي حافظ على سمعة وطنه وزاد في مجده وكانت قوة عزمه بما يندعش له أعظم القواد الحربيين وحضور بديته مثار اعجاب الهنود ) . مما بلغ كليف وهو في الهند فلاًه بالرضى عن نفسه ، ولكن هذا الرضا لم يبلغ مبلغ الغرور .

وفي ٢٥ فبراير سنة ١٧٦٠ غادر كليف أرض الهند في طريقه الى انجلترا وعند وصوله الى لندن لقي من الترحيب الشيء الكثير . وتوالت عليه الهدايا والهبات إلا أنه كان يطمع في أكثر مما رأى ، فاذا أخذنا في الاعتبار من كليف عند وصوله إذ كان لا يتجاوز الخامسة والثلاثين ورتبته في الجيش وقتذاك ومنبته المتوسط الذي منه درج لوجدنا ان ما قبل به من حفاوة وترحيب كان شيئاً عظيماً ، فأرلندا منحه لقباً أصبح به من أشرفها ، وفتح هذا أمامه أبواب الأمل في أن يصبح من أشرف انجلترا نفسها ، لا سيما بعد أن أحسن الملك جورج الثالث — الذي اعتلى عرش انجلترا حديثاً — استقباله ، وأحاطه الوزراء بالتكريم والتقدير .

وكان كليف قبل وصوله الى انجلترا قد أرسل اليها ثمانين ومائة الف من الجنيهات عن طريق الشركة الهولندية ، وأكثر من أربعين الفاً من الجنيهات عن طريق الشركة الانجليزية ، ومبالغ أخرى لا تقل أهمية عن هذه عن طريق مؤسسات أخرى . وفضلاً عن كل هذا المال فقد حمل معه من الماس والجواهر قدراً لا يستهان به ، وما كان يملكه في بلاد الهند من أراض وقدّر بنفسه ثمنها بمبلغ سبعة وعشرين الف جنيه ، كل هذه الثروة التي لم تمنح فعلاً لرجل بدأ معدماً كما بدأ كليف ، ساعدته ومكنته من أن يصرف المال عن سعة وبذخ حتى بدأ أشرف انجلترا في هذا الباب .



وكان كليف باراً بأهله فقد أرسل عقب معركة بلاسي — التي كان انتصاره فيها مفتاح كنوز ثروته — الى أخواته عشرة آلاف جنيه، وأطان كثيراً من الأصدقاء والأقرباء الفقراء، وأمر وكيله بأن يدفع ثمانمائة جنيه سنوياً لأبويه، وأن يشتري لها عربة تجرها الجياد، كما رتب خمسمائة جنيه سنوياً لرئيسه السابق لورنس، الذي كانت أحواله المالية على درجة كبيرة من السوء. وبلغ ما أنفقه كليف في هذا السبيل خمسين ألفاً من الجنيهات.

وأكثر كليف من شراء الأراضي واستطاع أن يصبح عضواً في مجلس العموم البريطاني عن شيرز بري، ورغم ذلك فلم يلعب دوراً هاماً في سياسة بلاده. ففي أول عهده بالسياسة اتصل بالمستر فوكس، ثم أعجب بعمقريه ونبوغ المستر بت. وأخيراً انضم إلى جورج جرنفيل في عام ١٧٦٤. وهكذا تنقل في أهوائه السياسية.

ولم يصب كليف أي نجاح في السياسة البريطانية رغم أنه كان محبوباً من جميع مواطنيه من الملك ومن الوزراء ومن دونهم من أفراد الشعب، ذلك لأن ما كان ينعم به من ذبوع صيت ومجد وتقدير إنما كان أساسه ما ناله من نجاح في بلاد الهند، سواء في ميدان السياسة أم في ميدان الحرب. ولو كان رجل غير كليف لقتنع بما أحرز من ألقاب، وما نال من ثراء، وما نعم به من ترف وصعادة من أهله وأحبائه، ولكنه كان رجلاً تعود الكفاح والحركة، فأخذ يرقب عن كشب ما يرد من أبناء إقليم البنغال كأنما كان يتنبأ بأن الحال هناك ستدعوه حتماً يوماً من الأيام الى تولي قيادة الأمور في تلك البلاد النائية.

### الحال في الهند

وكانت الاخبار تترى عن فساد الحكم والادارة في إقليم البنغال واضطراب الأمور فيه. ولعل ذلك كان راجعاً الى أن مركز ادارة شركة الهند الشرقية في لندن كان بعيداً عن ميدان أعمالها بعد أن حال بينها وبين مراقبة موظفيها في كلكتا. فجهلت كل شيء عنهم وعن تصرفاتهم لأنه لم يكن يهمها الا ضمان الأرباح التي تعود على المساهمين.

واستفاد هؤلاء الموظفون من جهل رؤسائهم بأحوالهم فاستغلوا التجار الوطنيين والاهالي استغلالاً لا عجبياً، ناسين كل اعتبار، الا أن يجمعوا الأموال الطائلة في أقصر مدة ممكنة حتى اذا مادوا الى وطنهم مادوا أثرياء. ولم يقفوا عند هذا الحد، بل بلغ بهم الأمر أن تدخلوا في



سياسة الحكم باعانة بعض الأمراء على بعض، بل خلعوا ميرجافير ذلك الأمير الذي اجلسه كليف على عرش البنغال وأحلوا ميرقسيم محله لقاء جعل معين وزايا وعدوا بها، ولكن هذا الأمير كان ذا شخصية قوية واردة حازمة وروح تميل الى الاستقلال فلم يشأ أن يذيب أفراد شعبه في بوتقة الظلم ليكون منه سبيكة خالصة من الذهب يقدمها الى أولئك السادة، لأنه رأى أن هذا الشعب قد استبد به البؤس، واشتدت به الفاقة، ولم يعد في ضرعه قطرة من اللبن، ذلك الشعب الذي بدأ أفراد يهربون الى الجبال خشية الاضطهاد، وهرباً من الاستعباد.

وأسف حضرات الموظفين لتولية ميرقسيم لأنه لم يعطهم ما طلبوا ولا حقق لهم ما رغبوا فيه، فسرعان ما خلعه عن عرشه، وأعادوا ميرجافير مكانه، ولم يكتف موظفو الشركة في إقليم البنغال بفرض سلطانهم على الأمراء ومن في حكمهم، بل عمدوا الى بث وكلائهم ومندوبيهم في القرى لإكراه الناس على أن يبيعوا لهم بضائعهم وحاصلاتهم بثمن بخس، وعلى أن يشتروا ما يؤمروا بشرائه منهم بثمن عال. وكان أولئك المندوبون والوكلاء يستندون في عملهم هذا الى السلطان المخول لهم من ادارة الشركة المحلية والتي كانت تعتمد في إظهار قوتها وجبروتها على قواتها المسلحة، ولو اتي الهنود هذا العنت والاضطهاد من أمرائهم لثاروا عليهم وخلعوه من عروشهم كما كانوا يفعلون قبلاً. أما والذين كانوا يفعلون بهم هذا من الانجليز فقد كان الأهالي يؤمنون بأنهم قوم لا يمكن أن ينالوا بسوء، أو يسدى إليهم نصيح حتى قوي هذا الاعتقاد عند الهنود فأصبحوا يرون أن الانجليز ليسوا من البشر إنما هم فئة من الجن. وكثرت حوادث الهرب. فلقد كان الهندي يهرب من الانجليز كما كان يهرب من المهراتنا الى الجبال الموحشة، والغابات المسبعة، لعله يجد في جوار مباح الفلاة أمناً لا يجده في جوار أولئك المستعمرين، فإذ كانت تصل إحدى القرى أنباء وصول سائح انجليزي حتى يبادر اهلوها الى إخراجها فوراً، فإذا دخل الرجل القرية وجدها بلقماً يباباً.

وتسرّب الفساد من ادارة الحكم الى الجيش نفسه فالضباط أصبحوا هم الآخرون يرفلون في ثياب الترف والنعيم، ويتمتعون بكل ما يستطيعون الحصول عليه من لذائذ وطرائف وتفشى بينهم روح التمرد والعصيان. وانتقلت هذه العدوى الى الجنود الأوربيين منهم والهنود وكثرت المؤامرات وعمت الفوضى والاضطراب بلاد الهند وقلّ إيراد الشركة فقلقت

الخواطر في تلك البلاد وأخذ في كل ما حذر على إعادة الظاهر والشرقية وأ يتفق معه وقبله على زيادة وكان هذا الحاجة الى وجاءت نتيجه البريطانية في هذه عام ١٧٦٥ ميرجافير كان عنهم كل البعد هدايا من الأمير الراحل لما سمع، و



الخواطر في لندن لهذه الحال وزاد في قلقها توارد الأنباء عن الاخطار التي كانت تهدد حدود تلك البلاد .

وأخذت الأنظار تتجه الى كليف الذي كان غيابه عن اقليم البنغال خمس سنوات سبباً في كل ما حلَّ به من سوء، ودارت على الألسنة عبارة أن كليف وحده دون سواه هو القادر على اعادة الأمور الى نصابها في الامبراطورية التي أوجدها .

وظهر هذا الرأي واضحاً وصريحاً في الجمعية العمومية التي عقدتها مساهمو شركة الهند الشرقية وأجمع الكل عليه ، ونادى المنادون بأنه يجب تناسي ما نسب الى الرجل ، وان يتفق معه على القيام بهذا العمل .

وقبل كليف في ذلك الاجتماع أن يذهب الى اقليم البنغال ، وان يصلح من شأنه ، وان يعمل على زيادة أرباح الشركة ، ولكن على شرط أن يتخلى مدير الشركة ( سوليفان ) عن منصبه ، وكان هذا منه تحدياً ظاهراً لغريمه القديم ذي السلطان القوي والنفوذ الكبير . ولكن الحاجة الى كليف حدت بالمساهمين الى إجابة طلبه ، وذلك بإعادة انتخاب مجلس ادارة الشركة وجاءت نتيجة هذا الانتخاب مرضية لسكليف . فعين وكيلاً للشركة وقائداً عاماً للممتلكات البريطانية في إقليم البنغال .

### تطهير

في هذه الظروف سافر كليف الى الهند للمرة الثالثة والاخيرة ، فبلغ كالكتا في مايو من عام ١٧٦٥ حيث وجد أن ادارة الحكم كانت في واقعها أكثر فساداً مما سمع عنها ، فان مير جافير كان قد مات عقب وفاة ولده ، واستهتر موظفو الشركة بأوامر رؤسائهم البعيدين عنهم كل البعد ، والجاهلين بشئونهم كل الجهل ، تلك الاوصار التي كانت تحظر عليهم قبول هدايا من الأمراء الوطنيين ، وشجعهم على هذا الاستهتار ، جشعهم للمال والرج . فأقدموا على عرض عرش البنغال للزيادة ، وتقديم إليهم من دفع لهم أربعين ألف جنيه ثمناً لذلك العرش فتقاضى تسعة من ذوي النفوذ في الشركة ، وارتقى العرش ثمناً لهذه الصفقة طفل من سلالة الأمير الراحل . وكان كليف قد بلغته أنباء هذه المساومة وهو في طريقه الى مقر عمله فاستاء لما سمع ، وزاد استيأؤه حينما رأى ودلم ، فكتب الى صديق له في إنجلترا يقول ( وأسفاه لما



أصاب ممعة الانجليز ، فإني أخشى أن لا أستطيع اصلاح ما حلّ بشرف الشعب البريطاني واني أشهدك وأشهد الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور : أني جئت هذه البلاد ، وضميري نقي لا ترقى اليه شائبة ، وأنني عزمت على أن أبيد هذه المساويء التي نخرت في كيان البلاد أو أهلها دونها .

واجتمع مجلس ادارة فرع الشركة في كالكتا بناءً على دعوة كليف الذي أعلن الأعضاء خلال ذلك الاجتماع بعزمه على أن يقوم بعملية تطهير واسعة ، وأنه سيستعمل في هذه السبيل كل سلطة مخولة له ، سواء أكانت هذه السلطة مدنية أم عسكرية . وثار أشد الأعضاء جراءة ، وأبلغهم قسوة ، وأسودهم صفحة ، لهذا القرار ، ولكن كليف أسكته بقوله ( أريد أن تعترض على الحكومة الجديدة وسلطانها ؟ ) . ولكن الناظر المحقد اعتذر وجلس متخاذلاً واسودت وجوه إخوانه وشملهم حزن عميق ولم يستطع أحد منهم أن ينطق حرفاً . ونفذ كليف وعده ، ففي خلال الثمانية عشر شهراً التي أقامها حاكماً بأقليم البنغال أحرز نجاحاً أي نجاح في تنفيذ مهمته التي جاء الهند من أجلها ، وكانت تلك الفترة من حياته أسعد أيامها ، ظل يذكروها بالفخار حتى أخريات أيامه .

وموضع الفخار أنه كان يستطيع أن يضاعف ثروته خلال تلك الفترة بأن يغمض عينيه عما كان يأتيه موظفو الشركة مع شعب وديع مسالم لا حول له ولا قوة من استغلال ، بل واستنزاف موارده ، فذلك الشعب الذي كان يجهل أين تقع تلك البلاد التي نكبتة بارصاها إليه أولئك المضطهدين القساة . ولكنه لم يشأ أن يبيع لنفسه ما جاء لتجريمه على سواه . وكان يعلم أنه في هذا التحريم سيصطدم برغبات بني جلدته من المغامرين الجشعين ، وأنه سيتمرض لثورة هائلة يشيرونها عليه إذ فوت عليهم جمع أكبر ثروة مستطاعة في أقل مدة من الزمن . كان الرجل يعلم كل هذا فأعدّ للأمر عدته ، رغم أن النجاح كان يبدو في أول الأمر مستحيلاً ، ولكن العوائق أخذت تنهار الواحدة بعد الأخرى أمام شجاعته ، وقوة إرادته ، فمنع قبول هدايا الهنود ، وحرّم على الموظفين الاتجار . وأحسّ كليف استياء هؤلاء وغضبهم لهذا فأعلن في حزم ما يتطرق اليه شك في أنه إذا لم يجد في حامية قلعة وليم القوة التي تكفيه لتنفيذ أمره فإنه سيأتي بتلك القوة من جهة ما ، وأتبع القول العمل فطرد الذين



أمرؤا على مقاومته ، واستبدل بهم غيرهم ، فلما رأى الباقون ما حلَّ بالثاثرين استسلموا  
لأمره ، ورضخوا لمشيئته ، وبهذا استتبَّ له الأمر في إقليم البنغال .  
ولكن كليف كان يعلم أن قوته الشخصية هي التي بددت تلك المساوىء التي كانت  
البلاد تنم منها وترزح تحت أثقالها . وأنه من المحتمل أن تعود إلى سابق قوتها إذا ما هو  
ترك مركزه هذا لسبب من الأسباب ، ورأى من الخير استئصال أسباب العلة .

### المخرج

فإن الشركة كانت قد جرت على منح موظفيها مرتبات ضئيلة لا تكفل لهم الحياة الهائلة  
أو تضمن لهم الراحة والرفاهية ، وهم الذين تركوا بلادهم وارتضوا العمل في ذلك الجو  
الحاقد الذي لم يتعودوه في أوطانهم . وكان طبيعياً أن أي رجل متوسط الكفاءة  
أو المواهب لا يرضى مثل هذه الظروف إلا إذا كان قد رسم لنفسه خطة ينتهجها إنتاجاً  
للرزق وطلباً للمال .

وعوّل كليف على أن يفتح لأولئك الموظفين باباً للرزق يدر عليهم ربحاً طيباً جلالاً  
يفنيهم عن قبول هدايا الأمراء ، وفرض إرادتهم على التجار والوسطاء ، سواء أكان ذلك في البيع  
أم الشراء ، ولا يدعمهم ينتظرون عبثاً من أولي الأمر في لندن زيادة مرتباتهم ، وهو أبغض  
الحلول عند أولئك المديرين . وفكر الرجل طويلاً في أمر ( المملح ) وكوّن ( شركة المملح )  
التي كان لها احتكار تجارة المملح في الأقاليم كله ، وسام فيها كبار الموظفين بمبالغ تتناسب مع  
درجاتهم وكانت الأرباح التي تعود عليهم من أسهمهم تتفق وما اكتسبوا به . وقال كليف  
في هذا الصدد ( إن المزايا التي تعود على المساهمين من تأسيس هذه الشركة والتي لها مطلق  
الحرية في احتكار هذه المادة هي أكبر حائل يمكن أن يحول دون قبول هدايا الوطنيين من  
الهنود ، ثم هي لا تضير شركة الهند الشرقية بشيء ما . )

ومهما برر كليف إنشاء شركته هذه فإنها كانت تتعارض مع الأمر الإداري الذي صدر  
من مركز الشركة الرئيسي في لندن في ٨ فبراير سنة ١٧٦٤ خاصاً بتحريم الاتجار في بعض  
المواد ومنها المملح على الموظفين . فاتهمه أعداؤه ثم أتهمه التاريخ بأنه خالف أوامر الشركة  
ونكث عهده الذي طاهد إدارة الشركة عليه ، وأنه بدلاً من أن يتفنى على دابر اتجاره ووفى



الشركة لحسابهم الخاص كما كان مفروضاً فيه عند مجيئه الى كلكتا نظم هذا الاتجار ووسع في أركانه ويرى ماكولي ان احتكار تجارة الملح كان مقصوراً على الحكومات المختلفة في بلاد الهند قبل أن يولد كليف وانه بقي كذلك أمداً طويلاً بعد مماته، وان كل ما فعله الرجل لا يعدو أن يكون فتحاً لباب من الرزق لموظفيه يزيد من ثرائهم قليلاً قليلاً. ولكن هذه الزيادة منتظمة وثابتة، لأنها تجعلهم مطمئنين الى مستقبلهم، فيسرون في عملهم باخلاص ويكرسون له جهودهم ووقتهم فيزداد نجاحاً وتعود فائدة ذلك كله على الشركة ومساهميها. بهذا قضى على مناوأة الموظفين المدنيين بمشروعاته الاصلاحية فاتجه ببصره الى العسكريين وكانت الشركة قد خفضت مرتباتهم تحقيقاً للاقتصاد الذي يرضي مساهميها، وتخفيفاً لضغط المصروفات. ولولا أن كليف كان في كلكتا في ذلك الحين لصار الأمر على أكبر جانب من الخطورة، فهو لاء كانوا أرباب السيف في بلاد لا يمكن أن تحكم بغير السيف. ودبر مئتا ضابط من الانجليز مؤامرة ضد الحكومة وصمم المتآمرون على الاستقالة من خدمة الجيش وضربوا لذلك موعداً يستقبلون فيه دفعة واحدة طالين أن كليف وهو خير من يقدر أهميتهم لا يقبل أن يترك الجيش بغير ضباط. ولكن كليف لم يأبه بهذه الاستقالة فاعتمد على اخلاص من لم يشترك في تلك المؤامرة وأرسل الى قلعة سان جورج في طلب مدد جديد من الضباط، وعين في الوظائف التي خلت باستقالة أولئك الضباط مدنيين ممن يثق بهم. أما الجنود الانجليز منهم والهنود فقد ظلوا على اخلاصهم ووفائهم لقائدهم الذي كان موضع اعجابهم وتقديرهم، وأمر بجمع الرؤوس المفكرة لتلك المؤامرة في الحال وشكل محكمة لمحاكمتهم وقررت المحكمة فصلهم من خدمة الجيش. أما الباقيون فقد راعهم ما حل بزعمائهم فالتمسوا سحب استقالتهم، وأعلنوا توبتهم، فعفى كليف عن صغار الضباط. أما كبارهم فقد كان معهم صارماً، لا عن حق ولا كراهية شخصية، ولكن لأنهم ارتكبوا جريمة العصيان.

#### السياسة الخارجية

الآن وقد تم له تطهير الادارة الحكومية مدنية كانت أم عسكرية، اتجه كليف ببصره الى السياسة الخارجية، فكان وصوله الى اقليم البنغال بشيراً بالسلام. فان نواب أود كان قد جمع جيشاً على حدود مقاطعة بهار، وكاز هذا الجيش يضم بين صفوفه كثيرآ من قبائل الافغان



والمرات . وكان المحتمل أن تنضم اليه عناصر أخرى كبيرة من الهنود ضد الانجليز . فما ان بلغ الأمير المهاجم نبأ وصول كليف الى كلكتا حتى عدل عن فكرة مهاجمة مقاطعة بيهار وطلب الصلح من الانجليز فقبل طلبه وكان كليف هو الذي أملى شروط هذا الصلح . وكانت العلاقات بين الانجليز والحكام الوطنيين غامضة غير واضحة الاسس والمعالم ، وان كان الأولون أصحاب السلطان الحقيقي في اقليم البنغال . ولقد شاء كليف أن يكسب للانجليز صفة شرعية في حكم ذلك الاقليم فحصل من ذلك الامبراطور الضعيف والذي لم يكن له حول ولا قوة مقابل قليل من المال على تصريح يفوض فيه الانجليز في حكم وتحصيل ضرائب اقليم البنغال وأوريسا والبيهار . تلك السلطات التي كان الانجليز يمارسونها فعلاً قبل صدور ذلك التصريح . ولكن بقي هناك أمير أو على الاصح شبه أمير كان الانجليز يتخذونه نكاة في حكم اقليم البنغال ، وأراد كليف أن يححو ذلك الشبح ولكنه عاد فأبقى عليه لانه رأى في بقاء تلك الصورة الهندية ما يفيد في سياسته مع تلك السلطات الأوربية الأخرى التي لا ترى غضاظة في النزول على رأي أمير وطني اعتادت احترامه من قبل مما يساعده هو على تحقيق أغراضه ، ولكنه عاد فحشى أن يصبح ذلك الأمير في يوم من الأيام ألعبوبة في يد الآخرين فعدل عن الابقاء عليه .

#### المعركة الأخيرة

وبعد أن قضى كليف في بلاد الهند ثمانية عشرة شهراً اضمحلّت صحته وتبدّد فيها جزء كبير من قوته أبحر عائداً الى وطنه المرة الأخيرة في يناير سنة ١٧٦٧ . ولم يجد كليف من مواطنيه في أوطه هذه ما لقيه منهم في المرة الأولى من ترحيب وحفاوة ، بل لقي كل اهل والانتقاد مرّ مما ألم نفسه ، وحزّ في قلبه ، وحطم أعصابه ، حتى عجل به الى قبره . وكان أول من ناصبه العداء أولئك الذين كانوا يحقدون عليه في ادارة الشركة ، وكانوا ذوي نفوذ قوي وسلطان متين ، وتطوَّع للانضمام اليهم في حملتهم على الرجل فئة من الموتورين الذين طالما عاثوا في اقليم البنغال فساداً ، فاقبلهم من أرضها اقتلاعاً ، وطهر البلاد منهم تطهيراً . وزاد في قوة هذه الجبهة التي اتحدت للقضاء عليه استمعاتهم بالعصف في التشهير به وإثارة الرأي العام عليه .



وكانت قد تكونت في انجلترا طبقة جديدة من أولئك الذين عادوا من الهند أرباباً ،  
بلغ بهم ثراؤهم مبلغ الأشراف في الترف والنعيم ، وإن لم يرفعهم الى مصافهم في الخلق  
والعادات ، فكانوا مشار بغض الناس وانتقادهم ، وحقدهم ، لأن هؤلاء الناس كانوا يعلمون  
أن هذا المال لم يأت إليهم حلالاً طيباً ، ولا كان ثمرة كدٍّ أو عمل ، ولكنه كان مالاً  
مغتصباً من قوم سذج بسطاء سليمي الطوية مسالمين استغلوا استغلالاً قبيحاً واستنزفت  
أموالهم بل وأقواتهم ، وجاء أولئك المغتصبون يبذرونه في غير أوجه التبذير ، ويبعثونه  
حيثما اتفق ، لا يعنيهم إلا أن يبدو وجهاء ، وإلا أن يقول عنهم الناس إنهم عطاء ،  
ولكنهم لم يصلوا الى غاية من الغايتين بل أصبحوا موضع السخرية والانتقاد المر والتحقير  
في كل مكان حلوا به ، حتى لقد بلغ بهم الأمر أن الناس كانوا يخلون لهم نواديرهم إذا هبطوا  
عليهم بها .

\*\*\*

وكان الشعب يريد أن يفرج عما كان يشعر به من ضيق إزاء أولئك المغتصبين بعد إذ  
رأى القصور يشيدونها في وقت قصير ، وما كانت تلك القصور تحويه من وسائل الترف ،  
وما كانت تضمه من الخدم والاتباع ، فسرعان ما صدق ما جاء بتلك الصحف المأجورة عن  
كليف ، بل واعتبره المثل الحي لأولئك المغتصبين فصب عليه غضبه وبقمته .

ولو نجحت مشروعات كليف في إقليم البنغال لكان ذلك شقيقاً عند الرأي العام ، ولكن  
كان من سوء حظه أن أثر تلك النظم التي وضعها لحكم ذلك الإقليم أخذيضف شيئاً فشيئاً ،  
وصياسته التي رسمها لإدارته تركت ظهرياً ، وبعثت المساوىء التي أماتها من مرقدها وزاد  
في سوء الحال أنه حدث في صيف عام ١٧٧٠ أن كفت الأمطار عن المطول ، وقل ماء  
نهر الجنجوز وضحل ، ومات الزرع ، وجف الضرع ، وعمت الجحاعة وادي ذلك النهر ،  
وانتشرت الأوبئة والأمراض ، ونشر الموت جناحيه على مكانه ، بل أدَّى الأمر الى أن  
برزت السيدات المحجبات الناعمات من خدورهن وخرجن الى الطرقات حاملات أطفالهن  
كالزهور الذابلة ، يتسولين طالبات خفنة من الأرض لسد رمق أولئك الأطفال . وازدجت  
شوارع كدنا بالجثث حتى تعذر المرور فيها . ولم يكن ميسوراً للأحياء أن يحملوا تلك  
الجثث الى المقابر أو الى النهر الذي أصبح مليئاً بأمنالها لضفهم ، وخورهم . فنزلت

الوحوش الضعيفة  
الأنباء الهندية  
المساحون الذين  
على ذلك الشعب  
كانوا صبيحاً في  
تلك الكارثة  
ثم شرائه منهم  
عليه تتوقف  
أباحه لهم كل  
ويدفع

الهند منذ سنة  
وقت أن كان  
خالفوا تلك  
ما أباحه له ،  
عن كل تلك

والى ذلك  
الثاني تعاقب  
رجال البلاط  
والثورات في  
الفرغ ما تسبب  
وأخير  
الهند . وكان



الوحوش الضارية مهمة التهامها نهراً ، وراح ضحية تلك المجاعة ملايين من الهنود . وبلغت الأبناء لشدن فضاغت اهتمام الناس بأخبار الهند ، وكان أشد الانجائز اهتماماً بها أولئك المسامحون الذين قلقوا على مصير أربابهم ، وبدأت النفوس تحس الأسف والأسى والعطف على ذلك الشعب البائس المنكود ، وتولد عن هذا الاحساس شعور بالغضب على أولئك الذين كانوا سبباً فيه . وأخذ الرأي العام يتهم موظفي الشركة الانجليزية الهندية بأنهم كانوا سبب تلك الكارثة لما كانوا يقترفونه من إكراه الهنود على بيع محصول الأرض رخيصاً لهم ، ثم شرائه منهم بثمن غال فوق طاقتهم ، في وقت كانت الطبيعة قاسية عليهم فخرمتهم المطر الذي عليه تتوقف حياتهم ، وإن أولئك الموظفين في إتيانهم ذلك المنكر إنما استندوا الى حق أباحه لهم كليف فاستقرّ مسخط الشعب على هذا الرجل

ويدفع ما كولي عن كليف هذه التهمة بقوله إنه كان وقت حدوث المجاعة قد غادر بلاد الهند منذ سنين ، وإنه ليس بين أسباب هذه المجاعة سبب واحد يتعلق بالقوانين التي منها وقت أن كان متولياً منصبه في تلك البلاد ، وإن موظفي الشركة باشتغالهم بتجارة الأرض إنما خالفوا تلك القاعدة التي منها لهم والتي عمل على توطيدها بكل ما أوتي من قوة وإن كل ما أباحه له ، إنما هو تجارة الملح ، ولما كان الناس كانوا قد اقتصروا بأن كليف هو المسئول عن كل تلك المساوئ وأنه من الواجب أن يؤدي عنها حساباً .

### الحساب

والى ذلك الحين لم يكن البرلمان قد أثار المسألة الهندية أي اهتمام ، فنذ وفاة الملك جورج الثاني تعاقب على حكم بريطانيا حكومات ضعيفة قصيرة الأجل كانت كل منها تذهب ضحية رجال البلاط ، ووجدت في المصاعب الناشئة عن المؤامرات في قصر الملك والشغب في العاصمة والثورات في المستعمرات الاميركية ما شغلها عن العناية بشبكة الهند فإذا ما تهيأ لها من الفراغ ما تستطيع أن تكرسه لدرس تلك المشكلة كان أثرها فيها ضعيفاً .

وأخيراً عمّ الشعور في سنة ١٧٧٢ بأنه أصبح على البرلمان واجب الاهتمام بسياسة الهند . وكانت الحكومة اذ ذاك أقوى حكومة اضطلعت بأعباء الحكم منذ استقالة



الوزير بت في سنة ١٧٦١ ، إذ لم يعد يشغل الأذهان من السياسة الأوربية ولا من المشاكل الداخلية شاغل . وكانت أزمة الشركة الانجليزية الهندية قد بلغت ذروتها ، وكان الرأي العام قد ركز المسؤولية كلها في كليف .

وكان مركز الرجل دقيقاً وحرَجاً إذ أصبح مكروهاً من الشعب كله ، ومكروهاً في إدارة الشركة . ومكروهاً من أولئك الموظفين الأثرياء الذين كسر شوكتهم ولم يكن كليف ضالماً مع أي حزب من الأحزاب السياسية في بريطانيا حتى كان ذلك الحزب يتولى الدفاع عنه في البرلمان . وكان أعداؤه أقوياء قوتهم في كثيرتهم وفي نفوذهم وكانوا لا يريدون أقل من أن يفقدوه بمعنته وثورته ، وان يصلوا إلى طرده من البرلمان ومصادرة أملاكه . ولم يعد على أولئك الناقين أن تحقيق هذه الغايات يشبع رغبتهم في الانتقام منه .

وكان دفاع كليف في البرلمان يشبه كثيراً خطبه الحربية فقد كان وحيداً محاصراً يفوقه أعداؤه في كثرة عددهم ونفوذهم ، ورغم كل هذه الأخطار المحدقة به لم يشأ أن يقف موقف المدافع عن نفسه بل آثر الهجوم . ففي بدء المسائل الهندية في ٣٠ مارس سنة ١٧٧٢ وقف كليف وألقى خطاباً مطولاً منمقاً دفع فيه عن نفسه معظم التهم المنسوبة إليه . وكان بليغاً في خطابه هذا حتى أثر في مستمعيه أثراً طيباً ، إلا أنه لم يدافع إلا عن أعماله في تلك الفترة الأخيرة من إدارته فرع الشركة في البنغال التي بدأت من عام ١٧٦٤ . ونجح في هذا الدفاع حتى أن أعداءه وقد سقطت حججهم في اتهامه عن هذه الفترة وجهوا جهودهم ونجحوا في استجوابه عن الفترة السابقة لها .

وكانت هذه الفترة مليئة بنقط ضعيفة يمكن مهاجمته منها ، واختيرت لجنة من أعضاء المجلس بالانتخاب لبحث قضية الهند ، وتولت هذه اللجنة فحص تاريخ تلك الثورة الكبرى التي أدت إلى إسقاط سراج الدولة وتولي ميرجاويز مكانه . واستجوبت تلك اللجنة كليف استجواباً دقيقاً خالياً من أية مجاملة . وكان الرجل شجاعاً وصريحاً في إجاباته ، فاعترف بأنه خادع أو مبدع وأن ضميره لا يؤنبه لهذا الخداع ، بل وصرح بأنه إذا أتيحت له في المستقبل ظروف مشابهة فسيلجأ إلى نفس الطرق التي اتبعها مع ذلك الرجل كما أقر باصتلامه بمبالغ طائلة من ميرجاويز ، ولكنه أنكر استعماله في سبيل ذلك ما يخل بالشرف أو يتنافى مع



الأخلاق . وقال انه في ذلك لم يكن أنانيًا ولا جشعًا ووصف في أسلوب رائع مركزه الذي مار اليه عقب انتصاراته الكبيرة يتملقه الأمراء العظام ، وتفتتح تحت قدميه كنوز الذهب والآلىء ويتنافس الممولون الكبار في سبيل ارضائه ، وأبدى عجبهُ قائلاً ( ياسيدي الرئيس . إني لأعجب في لحظتي هذه من قناعتى وقتذاك ) .

وطالت مناقشة الاستجواب حتى انتهت اللجنة من عملها وكان من السهل معرفة نتيجة هذا العمل ، فاعتبر كليف مذنباً ومقترفاً لأنام لا يمكن تبريرها ، إلاً بخرق النظم المشروعة والقوانين الموضوعة . ولكن المجلس لم ينكر على كليف ما كان يتصف به من صفات طيبة ويتحلى به من فضائل جمة ، وما كان قد أداه من خدمات خالدة لكل من وطنه والشعب الهندي .

وما كان واجباً أن تجري محاكمة النابغين من الرجال لاختطاء ارتكبوها ، أو هفوات أتوها تحت مؤثرات قوية لم يستطيعوا احتمالها كما تجري محاكمة المجرمين العاديين ، بل كان يجب أن يقدمهم معاصروم التقدير الذي ينالونه فيما بعد من الأجيال التالية . حقاً ان الأعمال السيئة سيئة على كل حال ، لا يجوز الباسها ثوب الحسن . ولكن يجب الموازنة بين ما قاموا به من أعمال ، وما أتوه من جرائم . فإذا رجحت كفة حسناتهم وجب أن يقتصر الجزاء على لومهم . فسكن من حاكم عظيم في التاريخ لم يسلم من ارتكاب غلطة أو اثنتين فأى من أولئك جميعهم كان يسلم من مثل تلك المحاكمة لو أن لمواطنيهم من القوة التي تدينهم كالتى أدانت كليف ، إن أفضل محاكمة لمثل هؤلاء دائماً هي محاكمة التاريخ .

كانت هذه الآراء نصب أعين العقلاء والمعتدلين من جميع رجال الأحزاب ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يبرئوه من اللوم كما أنهم لم يشاءوا أن يتركوه تحت رحمة تلك الذئاب الآدمية من ذوي العقول الضعيفة والتفكير السقيم . الذين قدموه لهذه المحاكمة وكانوا متعاطفين لقضاء عليه .

وفي خلال المحاكمة أنعم الملك على كليف بلقب ( مير ) ودعاه إلى التشرف بالمثل بين يديه . وفي تلك المقابلة أنعم عليه بلقب لورد . ولما قبل يدي الملك جورج الثالث أبدى جلالة عظمه العظيم عليه وأذن له بمقابلة خاصة . تحدث اليه خلالها مدى نصف ساعة عن



السياسة الهندية . وكان تأثر جلالاته عظيمًا حينما حدثه القائد المتهم عن خدماته وعن الجراء الذي ناله نظيرها .

ثم عرضت القضية على مجلس العموم البريطاني ووقف موقف الاتهام بورجون رئيس اللجنة التي توات التحقيق ، وتورلو النائب العام . أما وودبرن مساعد النائب العام فقد وقف الى جانب كليف ودافع عنه دفاعاً بليغاً ومنطقيًا ، ودافع كليف عن نفسه دفاعاً وان كان أقصر وأقل مهارة من دفاعه في بدء محاكمته إلا أنه كان أكثر حرارة ونشاطاً ، وربما صاميه أن يذكروا أن حكمهم ان ينصب عليه وحده ، ولكنه سيشملهم أيضاً . وبهذا ختم دفاعه — والسحب من المجلس .

### الحكم

وقرّر أعضاء مجلس العموم

« إن ما تحرزه قوات الدولة ملك هذه الدولة وحدها وان احراز موظفي الدولة لتلك الممتلكات عمل غير قانوني ، وان الموظفين الانجليز في اقليم البنغال قد تعوّدوا مخالفة هذه القاعدة » .

وفي يوم تالٍ قرر أعضاء المجلس .

« أن كليف نال مبالغ طائلة من ميرجاير بحكم وظيفته كقائد عام القوات البريطانية في الهند » .

وهنا وقف الأعضاء عن اتمام النص الى النتيجة المنطقية .

ولما أثبتت مسألة اساءة استعمال كليف سلطة وظيفته وضربه مثلاً سيئاً للموظفين ، دارت مناقشة حامية حول هذه النقطة ، ووقف وودبرن واقترح ( ان اللورد كليف قد أدى في نفس الوقت لوطنه خدمات عظيمة وجليلة ) . وبهذا انتهت المناقشة .

وهكذا اجتاز كليف تلك المحنة القاسية والازمة القاتلة وساعده على هذا انه لم يكن رجلاً حزبيًا تتجامل عليه الاحزاب الأخرى ، بل كان بطلاً وطنيًا فساهم المجلس كله في انتقاده بما كان مسوقاً اليه .



وأصبح كليف آمناً على ثروته وشرفه ، يحيط به أصدقاؤه وأقاربه ، إلا أنه كان يقامي كثيراً من المتاعب الجسمية والعقلية . وخيمت على عقله محبة من الآلام والأحزان . ولقد كان منذ شبابه المبكر فريسة الأفكار السود التي كانت تجذب اليه الموت ، حتى لقد حاول الانتحار مرتين حينما كان كاتباً في خدمة الشركة في مدراس . ثم حالت كثرة ما قام به من أعمال وما نال من نجاح دون استمرار تلك الأفكار السود . ففي الهند شغلته الأعمال العظيمة التي كان مضطرباً بها ، وفي إنجلترا صرفه عنها تراؤه وما ناله من رتب وتقدير فبدأ يرضى عن نفسه ويعد نفسه سعيداً . أما الآن فقد خلا من كل خاطر يشغله ، أو أمل يرجيه ، أصبح كالريشة في مهب الريح ، لا سيما بعد أن نال ما نال من عنت أصدقائه وإهانة اللجنة التي تولت التحقيق معه ، وذلك الاتهام الذي وجهه إليه مجلس العموم وإن كان في ثوب مقبول ، وما كان يشعر به من أن مواطنيه يعدونه قاصياً وخائناً وظالماً . كل هذه الاعتبارات تجمعت في ذهن كليف ، وسببت له القلق والآلام ودين الخلق .

وحينما كان في المناطق الحارة أصابته عدة أمراض مضمضة والتمس شفائها فيما أشار عليه به المشيرون بتعاطي الأفيون ، حتى أصبح لهذا التعاطي طادة وأصبح هو أسيراً لها . وقد كان يظل ساكناً ساعات طويلة تحت تأثير المخدر . ثم يضحو فتصحو معه مميزات العسكرية والسياسية فيناقش أية مسألة تعرض عليه بجلاء وحكمة ثم يعود الى إغفائه واطرافه الحزين .

وزادت حدة المناقشات بين إنجلترا ومستعمراتها الأمريكية حتى دعى الأمر الى امتشاق السيف ، وفكرت الحكومة في الانتفاع بمواهب كليف لو كان قد ظل على ما كان عليه يوم رفع حصار « باتنا » . وعند ما قضى على الجيش والبحرية الهولندية عند مصب نهر الجنجر . ولكن كليف لم يكن عند ظن أولئك الوزراء به ، فان عقله الجبار كان قد أجهدهته المتاعب والآلام ، حتى اذا جاء اليوم الثامن والعشرون من شهر نوفمبر سنة ١٧٧٤ انتحر كليف وكان قد بلغ التاسعة والأربعين من عمره .

وهكذا انتهت حياة مؤسس الامبراطورية البريطانية في الهند بعد ان ترك صفحة رائمة في سجل الخالدين .



### وللمعرب

- ١ — فتاة الجيشا : صورة جميلة ناعمة للحياة الداخلية في بلاد اليابان محلاة بالصور .
- ٢ — زينيدا وقصص أخرى : من ألطف ما كتب أنطون تشيكوف .
- ٣ — غرام الاميرال : صورة حية لأروع الوقائع الغرامية في التاريخ محلاة بالصور .
- ٤ — الجلد المسحور : قصة رائعة تحليلية لأونوريه دي بلزاك محلاة بالصور .
- ٥ — بائع الخضر وقصص أخرى : مجموعة من خير ما كتب أناتول فرانس .
- ٦ — دون جوان وقصص أخرى : » » » » أونوريه دي بلزاك .
- ٧ — روائع الأدب الألماني : لأشهر كتاب المانيا
- ٨ — مجد امرأة وقصص أخرى : مؤلفة
- ٩ — باقة البنفسج : مختارات من أشهر المآسي

منزلة الآ  
وانه بما لا ر  
أو مفهومات  
رؤوس الطبقة  
لا ننكر  
دائماً قواسر  
والعرف اللذين  
ولا نكران أ  
المصور القديم  
أو أشور أو  
ويخضع كل ان  
ذلك ما أدرك  
الوسطى ، وما  
التصورات ال